

دير القديس أنبا مقار

برية شيهيت

رسائل القديس أنطونيوس العشرون

مع

توضيح وتلخيص المبادئ الروحية الهامة

للأب متى المسكين

على الرسائل السبع الأولى

كتاب: رسائل القديس أنطونيوس
مع توضيح وتلخيص المبادئ الروحية الهامة للأب
مقي المسكين على الرسائل السبع الأولى.

الناشر: دار مجلة مرقس

الطبعة الأولى: ١٩٧٩ م.

الطبعات اللاحقة: ٢٠٠١ - ٢٠١٦ م.

الطبعة الخامسة: ٢٠٢٠ م

مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.

ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.

الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٩٥٦ / ٢٠٠١ م.

رقم الإيداع الدولي: 2-100-240-977 ISBN

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير

أو من خلال الموقع على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

المحتويات

٤	إهداء للقارئ
٦	الرسالة الأولى
١٢	الرسالة الثانية
١٦	الرسالة الثالثة
٢٠	الرسالة الرابعة
٢٢	الرسالة الخامسة
٢٥	الرسالة السادسة
٣٣	الرسالة السابعة
٣٩	توضيح وتلخيص المبادئ الروحية الهامة على الرسائل السبع الأولى
٧٤	الرسالة الثامنة
٧٨	الرسالة التاسعة
٨٠	الرسالة العاشرة
٨٣	الرسالة الحادية عشرة
٨٦	الرسالة الثانية عشرة
٨٩	الرسالة الثالثة عشرة
٩٢	الرسالة الرابعة عشرة
٩٥	الرسالة الخامسة عشرة
٩٨	الرسالة السادسة عشرة
١١٠	الرسالة السابعة عشرة
١٢٣	الرسالة الثامنة عشرة
١٣٠	الرسالة التاسعة عشرة
١٣٦	الرسالة العشرون

نص العشرين رسالة الذي تقدّمه مأخوذ من مخطوط رقم ٢٣. مكتبة دير القديس أنبا مقار مع تنقيح خفيف للغة. ومعروف أن هذه الترجمة العربية للعشرين رسالة قد نُقلت مباشرة عن الأصل القبطي لهذه الرسائل، المفقود حالياً. ففي نهاية مخطوط رقم ٨٨ بالمتحف القبطي مكتوب أن الترجمة العربية لرسائل القديس أنطونيوس العشرين قد نُقلت عن الأصل القبطي بيدير الأنبا أنطونيوس بجبل العربة سنة ٩٨٦ ش (١٢٧٠م) عن مخطوطين باللغة القبطية، فما كان غير واضح في الواحد أخذ من الآخر. وهذا يعطي قيمة كبيرة للترجمة العربية الموجودة بأيدينا أكثر من أية ترجمة في لغات أخرى، التي هي مأخوذة عن اللاتينية أو الجيورجية أو السريانية، نقلاً عن اليونانية، نقلاً عن القبطية؛ بينما الترجمة العربية الحالية هي الوحيدة المأخوذة مباشرة عن النص القبطي الأصلي.

وهذه المقالات للقديس أنبا أنطونيوس، بسيطة غاية البساطة، وعميقة غاية العمق، تتناسب مع كل قامة روحية:

- فالبعيد عن الله تحذّره ثم تناديه بلطف وتشجيع منقطع النظر.
- والذي ابتدأ الطريق ولا يزال على السطح تُوعّيه وتفتح بصيرته، لينتقل بغاية السهولة إلى العمق.
- والذين اتخذوا طريقهم بحزم وعزم فهي ترقى بهم فوق الصعاب، وتنير أمامهم مفاهيم جديدة، تزيدهم إحساساً بالتقوى والغيرة، وتلهب قلوبهم للإمساك بدرب القديسين.
- وإن أردت أيها القارئ العزيز - مهما كنت وأينما كنت - مزيداً من التعريف بهذه الرسائل، أستطيع أن أقول لك: إنها دستور السعي في طريق الخلاص، وإنها تحمل روح أنطونيوس حقاً وفعلاً. فحين تقرأها وتكرّر القراءة تحس بصدق ما أقول.

الرسائل العشرون للقدّيس أنبا أنطونيوس

الرسالة الأولى

في الخروج من العالم إلى الرهبة

١ - قبل كل شيء، أنا أطلب خلاصكم بالرب.

وأقول إن الأرواح التي بُلّغت إليها بشارة روح الله، من رجال ونساء، ثلاث رتب:

الأولى: هي رتبة الذين قبلوا - وفقاً لناموس الطبيعة والحرية الموضوعة فيهم أولاً - ما بُلّغ إليهم من البشارة بواسطة القول، ولم يتوانوا بل أسرعوا وهم مستعدون تماماً كما كان أبونا إبراهيم مستعداً بناموس الطبيعة، ولهذا كلمه الله قائلاً: «أخرج من أرضك ومن بني جنسك وادخل إلى الأرض التي أريك إياها» (تك ١٢: ١)، ولا تكن ذا قلبين. فاستعدّ إبراهيم لهذه الدعوة وصار مثالاً للذين يبتدئون. وإلى الآن (ما زالت) هذه الدعوة ثابتة للذين يريدون الدخول في هذا الشكل^(١)، إذا هم صنعوا هكذا حتى يكون قلبهم مستعداً أن يتبع روح الله، فهم ينالون المواعيد براحة (عب ١١: ٣٣)، وهذه هي صفة هؤلاء.

والرتبة الثانية: هم الذين يسمعون المكتوب، وهو يشهد لهم بالدينونة التي تكون للخطاة والمواعيد الصالحة التي لمن يتبعي الصلاح، ومن أجل هذه الشهادات المكتوبة في الناموس تيقظت نياتهم وطلبوا الدخول في هذه الدعوة، كما قال داود النبي إن «ناموس الرب يحمي النفوس» (مز ١٨: ٧)،

(١) يقصد إسكيم الرهبة، أي السيرة الرهبانية.

وقال أيضا: «كلامك يضيء لي، وناموسك يعلم الأطفال» (مز ١٣٠: ١١٨). والمكتوب مثل هذا كثير.

والرتبة الثالثة: وهم الذين قلوبهم قاسية ومدمنون على فعل الخطايا - فيجلب عليهم الله الرحوم مصاعب وشدائد حتى تتنبه سرائرهم ونياتهم لكثرة ما يأتي عليهم، فيندمون ويرجعون ويستعدون ويدخلون إلى هذه الدعوة ويتوبون من كل القلب، وينالون المواعيد كالرتبتين الأولى والثانية.

فهذه هي الرتب الثلاث التي تدعى بها النفوس الراجعة للرب حتى تنال نعمة الإله ابن الله.

٢ - وأنا أقول إن كل الذين دخلوا بكل قلوبهم يتعلمون الصبر إلى أن يقدرُوا على مقاومة العدو. هؤلاء قيل كل شيء يدعوهم الروح القدس ويسهل عليهم كل الأمور حتى يُحَلَّى لهم الدخول في التوبة، ويُظهِر لهم طرقها الحقيقية لكي يتوبوا بأرواحهم وأجسادهم، ويرجعوا إلى الله الخالق فيعضدهم بالقوة حتى يُقِمِّعُوا الجسد والروح لكي يَظْهَرا كلاهما ويصيرا وارثين الحياة الأبدية.

أما الجسد فنتعبه بالصوم الكثير والسهر والجهاد وبقية الخِدَم التي هي الأثمار الجسدانية. ولهذا (توازر) روح التوبة ذلك الإنسان وتعزبه وتعرفه أن لا يرجع إلى ورائه ولا يتعلق بشيء من أمور العالم. كما وتفتح عيني النفس أيضاً (لمعرفة) التوبة الحقيقية لكي تتطهر مع الجسد، ويكون كلاهما واحداً في الطهارة، لأن هذا هو تعليم الروح القدس. لأنه يقودهما ويظهرهما ويمحو منهما الطبائع (الغريبة) المترحة بالجسد، وينقلهما كليهما إلى الخلقة (أي الحالة) الأولى التي كانت لهما قبل المخالفة. ولا يبقى في الإنسان شيء

من أمور العدو. وعند ذلك يصير الجسد تابعاً لإرادة العقل الذي يظهره في أكله وشربه ورقاده وسائر تصرفاته، ويتعلم دائماً من الروح القدس، كما يقول الرسول: «إني أقمع جسدي وأستعبده.» (١ كو ٩: ٢٧)

٣ - وأنا أعلم أن في الجسد ثلاث حركات: الأولى دائمة فيه وليس لها أن تفعل شيئاً بغير إرادة النفس. والحركة الثانية تدفع الجسد إلى المآكل والمشارب الشهية؛ وحرارة الدم المتولدة من كثرة الأغذية تثير الحرب في الجسد وتستميله إلى الشهوات الرديئة. ولذلك قد حذر سيدنا المسيح له المجد تلاميذه بقوله: «لا تثقل قلوبكم بالشرع والسكر» (لو ٢١: ٣٤). وبولس الرسول يقول: «لا تسكروا بالخمير الذي يكون منه المجون» (أف ٥: ٨). فيجب، إذن، على كل من لبسوا زى الرهبنة أن يقولوا مع بولس الرسول: «إني أخضع جسدي وأستعبده» (١ كو ٩: ٢٧). والحركة الثالثة هي من الأرواح الشريرة لكي تردّ الذين يريدون الدخول في باب الطهارة.

ولكن النفس إذا تسلحت بالصبر الدائم وبالشهادات التي من نفس (روح) الله، فالروح القدس يرشد العقل إلى تطهير النفس والجسد كليهما من هذه الثلاث حركات.

فإن غفل الإنسان عن هذه الشهادات والتعاليم التي قد سمعها، فحينئذ تقوى عليه الأرواح الرديئة وتنجس جسده؛ إذ ذاك تفكر نفسه كيف تأتيها المعونة. فإن رجعت والتصقت بروح الخلاص، فهي عند ذلك تعلم أن الصبر من أجل الله هو راحتها وسلامها.

٤ - وهذه الأقوال التي قلناها لكم هي من أجل اتفاق الجسد والنفس في التوبة. فإذا نال العقل هذه النعمة، عند ذلك يطلب (يُصلي) بالروح القدس

ويبتدئ أن يطرد عن النفس كل المصاعب التي تأتي عليها من شهوات القلب.

وهذا الروح (القدس) إن كان له شركة مع العقل ليساعده على حفظ الوصايا التي تعلمها، فإنه يرشده لينزع عن النفس تلك الأوجاع التي امتزجت بالجسد، واحدة بعد أخرى؛ وأيضاً الأوجاع التي لها (أي للنفس) خاصة وكائنة فيها. فالروح ينزعها تماماً من قمة الرأس إلى أسفل القدمين: فالعينان لتضيئاً باستقامة وتنظراً بطهارة، ولا يبقى فيهما شيء غريب (دنس). والأذنان لسمعاً بسلام لا بنميمة ولا بتعير البتة، بل باستقامة وتراؤف على جميع الخليقة. وأيضاً اللسان يتكلم بالطهارة، والنفس تعلم اللسان أن ينطق دائماً بالخير؛ لأن هذه الأوجاع كلها كانت قد تسلطت عليها من اللسان، كما قال يعقوب الرسول: «إن من يقول إنني أخدم الله وهو لا يُلجِّم لسانه، فهو يُضِلُّ قلبه وتكون خدمته باطلة» (يع ١: ٢٦). وهو يقول في موضع آخر: «اللسان عضو صغير، لكنه ينطق بالعظائم وينجس الجسد» (يع ٣: ٥ و٦). ومثل هذا كثير في الكتب المقدسة. فإذا تقوى العقل وأخذ من الروح فإنه يتطهر، وعند ذلك يفحص عن كل كلام ينطق به اللسان حتى لا تكون فيه إرادة جسدية، وبهذا يكمل عليه قول سليمان (الحكيم): «الكلمات التي أُعطيَتْها من الله ليس فيها ميل ولا اعوجاج» (أم ٨: ٨). ويقول أيضاً: «لسان البار يشفي الأمراض..» (أم ١٢: ١٨)

وأيضاً للأيدي حركات أخرى تعمل في بعض الأوقات بهوى النفس، وهذا ليس من الواجب؛ لأن الروح أعدها للطهارة ولرفعها للصلاة وفعل الرحمة والعطاء، فيكمل عليها القول المكتوب من أجل هذه الصلوات الطاهرة: «رَفَعَ يدي كقربان المساء» (مز ١٤٠: ٢). ويقول من أجل الرحمة والعطاء: «يد الأقوياء تعطي بسِعة..» (أم ١٠: ٤)

والبطن أيضاً يتحرّز من الماكل والمشارب كما يقول الروح على لسان داود النبي: «أنّي لم أؤاكل الرغيب العين والشره القلب» (مز ١٠٠: ٥). فإن تسلّطت عليها (أي على البطن) كثرة الماكل والمشارب وعدم الشبع، واجتذبتها النفس الشهوانية إلى ذلك فإن قوة العدو تختلط معها.

فالذين يطلبون هذه الدرجة العالية من الطهارة، روح الله يهديهم إلى طرقه المستقيمة، ويثبتهم في الطهارة واستقامة الجسد، ويكمل عليهم قول بولس الرسول: «إن أكلتم أو شربتم فكل ما تفعلونه يكون لمجد الله» (١ كو ١٠: ٣١). لأنه إذا قويت هذه الثلاث الحركات المذكورة سابقاً على الجسد لتُميله عن الاستقامة، فالذي يكون طالباً الخلاص بالحقيقة ينزعها عنه براحة ويتمسك بالطهارة. لأن الروح صار له ملجأ، ويزيده قوة، ويطفئ عنه كل الشرور المتحركة عليه، كما يعلمنا بولس الرسول قائلاً: «أُميتوا أعضاءكم التي على الأرض، أي الزنى والنجاسة والأوجاع والشهوات الرديئة» (كو ٣: ٥)، وما يتبع ذلك.

والرجلان أيضاً إن كانتا ليستا بمستقيمتين ولم يسعيا بتحرّز كإرادة الله، فالقلب الذي امتلأ بالنعمة يضبطهما ويحركهما بإرادة الروح القدس ليخدما في الأمور الحسنة، لكي يتكمل الجسد بجميع الحسنات ويرجع تحت سلطان الروح القدس. وأنا أقول إن ذلك الجسد قد اتخذ شيئاً من الجسد (الروحي) المزمع أن يقوم في قيامة الصديقين.

وما قلناه هو من أجل أوجاع النفس التي امتزجت مع الجسد وهي تُحرّكه إلى الميل والانجذاب نحو الأوجاع الشريرة بخدمتها في جميع الأعضاء. ومن ناحية أخرى أقول إن للنفس أيضاً حركات أخرى تخصها، وأوجاع مختلفة غير أوجاع الجسد، نريد أن نعرّفكم بها. وهي: كبرياء، تعبير الناس،

غضب، ضعف القلب، عدم الانضباط، وبقية الآلام. فإن أسلمت ذاتها للرب بكل قوتها، فإن الله الصالح يعطيها التوبة الحقيقية، ويُظهر لها هذه الأوجاع واحدة واحدة لكي تحيد عنها، ولا تقوى عليها حركات العدو من خلال التجارب، لأن قصدهم (أي الشياطين) أن لا تخلص منهم.

فإن دامت النفس على الصبر والاستماع الحسن للروح القدس الذي يجتذبها للتوبة، فإن الخالق الرؤوف يتحنن على تعبها وعلى أتعاب الجسد التي هي: كثرة الصوم، والسهر الكثير، والهذيد في كسب الله، والصلاة بغير فتور، والخدمة لجميع الناس بطهارة القلب ومسكنة الروح. فإذا دامت في هذه كلها، فإن الرب الصالح ينظر إليها وينجيها من جميع التجارب، ويخلصها برحمته ويرحمها، لأنه يحب البشر، ويحقُّ له التمسيح والتمجيد مع أبيه الصالح والروح القدس الآن وكل أوان إلى دهر الدهور. آمين.

الرسالة الثانية

لأولاده الرهبان

فى اشتراع الناموس وتجسّد الإله الكلمة،

وفىها يحثهم على العمل بالوصايا

١ - أنطونيوس يكتب لأولاده الأحباء بالرب، ويهديهم السلام.

أيها الأحباء فى الرب، إن الله لم يفتقد خليقته مرة واحدة فقط، بل فى كل وقت من بداية العالم إلى نهايته. فكل من يطلب الرب باجتهاد ومحبة ويسمع تعاليمه، فإنه يكون معه ويعطيه الروح القدس.

وحيث إن الطبايع الناطقة المشتركة مع الأجساد قد ضعفت وتغيرت بسبب حركات النفس وماتت، فلم تستطع أن تفكر فى خلقتها الأولى بل «صارت كالبهيمة» (يه ١٠)، و«خدمت (أي عبدت) المخلوقات دون الخالق» (روا ٢٥: ١)، فقد افتقد خالق الكل - بقوة صلاحه - خليقته بنواميسه المحيية. والذين استحقوا هذه النعمة، وسعوا بحسب الناموس بكل قوتهم ونيتهم، قبلوا روح البنية وتعلّموا من الروح القدس، فاستطاعوا أن يسجدوا للخالق «كما يجب» (يو ٢٤: ٤). وكقول الرسول بولس إن هؤلاء الذين ثبتت لهم الشهادة بإيمانهم «لم ينالوا الوعد لأن الله قدّم النظر فى منفعتنا نحن لكى لا يكملوا بدوننا» (عب ١: ٣٩-٤٠).

٢ - فلأجل محبته العظيمة - إذ هو إله الكل - أراد أن يفتقد ضعفنا،

فأقام لنا موسى مشرعاً للناموس وأعطانا الناموس على يديه، فوضع لنا أساس البيت الحقيقي الذي هو الكنيسة الناطقة الواحدة، وبمشيئته دبر أن يرد الخليفة إلى خلقتها الأولى. فبنى موسى البيت ولم يكمله بل مضى وتركه. فأقام الله بعده جماعة الأنبياء بهذا الروح الواحد، فبنوا هم أيضاً على الأساس الذي وضعه موسى ولم يكملوا بل مضوا وتركوه. ثم إن آباءنا الروحانيين لما نظروا هذا المرض ليس له شفاء، علموا أن لا أحد من هذه الخليفة يقدر أن يشفيه ما خلا وحيد الآب وحده، الذي هو صورة أرلئته، الذي به كانت كل الخليفة التي هي مثاله، وتحققوا أنه هو المخلص والطبيب. فطلبوا باجتهاد من أجلنا نحن لأننا شركاؤهم في الأعضاء، قائلين: «أليس ترياق في جلعاد، ولا طبيب؟ لماذا لم يأت شفاء ابنة شعبي؟» (إر ٢٢: ٨)، «أعطينا أدويتنا فلم نُشف، فالآن نهرب منها» (إر ٩: ٥١). لكن الله الكلمة - بمحبته غير المدركة - أتى إلينا كقول أنبيائه الأطهار: «يا ابن البشر اتخذ لك آلة السبي» (حز ١٢: ٣). وهو الكامل في صورة الله، ولم يختطف ذلك اختطافاً أن يكون معادلاً لله، لكنه اتضع وأخذ شكل العبد، وتشبه بنا نحن البشر، ما خلا الخطية (عب ٤: ١٥)، إلى حد موت الصليب. فرفعه الله بالأكثر وأعطاه اسماً أعظم من جميع الأسماء، لكي تحشو باسم يسوع كل ركبة مما في السماء وعلى الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع هو الرب ومجد الله الآب (في ٢: ٦-١١).

فمن الآن، أيها الأحباء، ليكن هذا الكلام ظاهراً لكم: إن الآب بصلاحه لم يشفق على ابنه الوحيد؛ بل أسلمه (رو ٨: ٣٢) من أجل خلاصنا من خطايانا وآثامنا، واتضع لأجلنا «وشفانا بأوجاعه» (١ بط ٢: ٢٤)، «وبكلمة قوته» (عب ١: ٤)، وجمعنا من أقطار الأرض وكل المسكونة،

وصار لنا قيامة وخلّصاً من خطايانا، وأعلمنا أننا أعضاء بعضنا لبعض.

٣ - فأطلب إليكم، أيها الإخوة الأحباء، باسم ربنا يسوع المسيح، أن تعلموا جيداً هذا التدبير العظيم: أن الإله الكلمة تشبّه بنا في كل شيء ما خلا الخطيئة. لهذا فالواجب على جميع الناطقين أن يعلموا هذا بحقيقة العقل، ويُفرّقوا بين الخير والشر ليستطيعوا أن يصيروا أحراراً بمحيته إلينا. فالذين قد تحرروا وتدبّروا بتدبيره، دُعوا عبيداً له. وهذه الدعوة ليست هي الكمال، بل البر في وقته هو الكمال، وهو الذي يرشد إلى البنوة.

ولما علم ربنا يسوع المسيح أن تلاميذه قد اقترَبوا أن يقبلوا روح البنوة، وأنهم قد عرفوه وتعلّموا بالروح القدس، قال لهم: «لست أدعوكم الآن عبيداً بل أحبّاء وإخوة، لأن كل ما سمعته من الآب أعلمتكم به» (يو ١٥: ١٥). ولهذا فالذين علموا بحقيقة جوهرهم العقلي، نطقوا بأصواتهم قائلين: «إننا لم نقبل روح العبودية فنخاف، بل روح البنوة الذي به ندعو الآب أباناً» (رو ٨: ١٥). فالآن، يا رب، قد علمنا ما أنعمت به علينا. فلن كنّا بنين فنحن وارثون لله، وأحبّاء وشركاء ميراث المسيح (رو ٨: ١٧).

فليكن هذا الكلام ظاهراً لكم، والذي لم يستعد أن يقوم بكل قوته، فليعلم أن مجيء الرب المخلص سيكون له دينونة: «فنحن لقوم رائحة موت (تفود) للموت، ولقوم رائحة حياة (تفود) للحياة» (٢ كو ١٦: ٢)، وأيضاً: «إن هذا لسقوط وقيام كثيرين من إسرائيل وعلامة تقاوم» (لو ٢٤: ٢).

فأطلب إليكم، أيها الإخوة الأحباء، باسم ربنا يسوع المسيح، أن لا نتوانوا عن خلاصكم، بل كل واحد فواحد منكم يشق قلبه لا ثيابه (يو ٢: ٣)، لئلا نكون قد توشحنّا بالإسكيم ونحن نعدُّ لنا دينونة، فإنه قد قرب

الزمان ويُدان كل واحد فواحد كعمله.

ولأجل غموض الكلام أردت أن أكتب إليكم أكثر، وتوقفت؛ لأجل
القائل: «أعطِ الحكيم فرصة فيزداد حكمة.» (أم ٩: ٩)

أهديكم السلام في الرب، صغيركم وكبيركم، ولتكن نعمة الرب معكم،
أيها الإخوة الأحباء، إلى الأبد. آمين.

الرسالة الثالثة

لأولاده الرهبان

يحثهم على العمل، بأقوال من الإنجيل والرسول

١ - يا أولادي الأحباء، إن الإنسان الناطق إذ استعد أن ينعشق في يوم مجيء ربنا يسوع المسيح، فهو يعرف ذاته بجوهر العقل. لأن من يعرف ذاته يعرف أيضاً تدابير الخالق في خلائقه الأحباء بالرب، واشتراكهم في الميراث الأبدي بشركة أعضاء القديسين. ولهذا أنا أيضاً أطلب إليكم باسم ربنا يسوع المسيح أن تسعوا بما يجب عليكم للرب، لكي يعطيكم جميعاً روح الإفراز لتمييزوا وتعرفوا المحبة التي لي فيكم أنها ليست محبة جسدانية بل محبة روحانية. ولذلك لم نسمِّكم بأسمائكم الجسدانية بل (بأسمائكم) التي لا تزول. لأن كل من يعلم اسمه الحقيقي ينظر اسم الحق. فيعقوب كان اسمه هكذا أولاً عندما كان مع الملاك في الليل، فلما كان الصباح دُعي اسمه إسرائيل (تك ٣٢: ٢٨-٣٠). وترجمة إسرائيل العقل الناظر إلى الله.

وأنا أعلم أنه ليس يخفى عنكم أن مضادّي الفضيلة يقصدون إبطال الحقيقة في كل وقت. ولكن الله في كل وقت يتعاهد خلقته منذ بدء العالم وإلى الأبد. ولهذا فالذين يريدون أن يأتوا للخالق بكل (استعداد) ناموس قلبهم، فإنه يعلمهم أن يسجدوا له كما يجب (يو ٤: ٢٤).

والآن فعين كثرة الضعف وثقل الجسد وحرب الأعداء الخبثاء، ذبلت حواس الجسد الطاهرة وصارت حواس النفس بغير قوة؛ فهي ليست محلولة

مع الجسد لأن جوهرها (أي النفس) عادم الموت؛ ولا تستطيع أن تتعق ببرها. ولهذا لم تستطع أن تطلب ما يخصها لترجع إلى حالة خلقتها الأولى؛ ولذلك عمل الله مع النفس بصلاحه، وعلمها أن تسجد للآب كما يجب (يو ٤: ٢٤). لأن الله واحد هو، والجوهر العقلي أيضاً كائن في الوجدانية. فليكن هذا الكلام - يا أحبائي - ظاهراً لكم: إن كل المجتمعين (في حياة الشركة) إذا لم يكونوا قلباً واحداً، يجلبون على أنفسهم الحروب ويصنعون لهم دينونة.

٢ - فلما نظر الخالق إلى الخليقة، وأن ضربتها قد اتسعت، وهي محتاجة إلى أطباء ليشفوها، فسيدنا يسوع المسيح الذي هو خالقها وشافئها، أرسل أمامه مندرين؛ ولسنا نخاف أن نقول إن موسى كبير الأنبياء وواضع الناموس هو أحد هؤلاء المندرين. والروح الفاعل في موسى هو ذاته الذي عمل في جميع الأطهار بعده. فجميعهم تكلموا من أجل ابن الله الوحيد. ويوحنا كان أيضاً واحداً من المندرين؛ لأن «الناموس كان إلى يوحنا» (لو ١٦: ١٦)، «ومنذ أيام يوحنا ملكوت الله يغتصب والغاصبون يحتطفونه» (مت ١٢: ١١). وجميع هؤلاء اللاسبين الروح علموا أنه لا يستطيع أحد من الخليقة أن يشفي جرحاً عظيماً بهذا المقدار، إلا صلاح الابن وحده الذي هو وحيد الآب الذي أرسله خلاصاً لجميع المسكونة، إذ هو الطبيب العظيم الذي يمكنه أن يشفي هذا الجرح المتزايد.

٣ - والآب في صلاحه «لم يشفق على وخيده بل أسلمه عن خطايانا» (رو ٨: ٣٢). ولأجل خلاصنا جميعاً من آثامنا، وأضع الوحيد ذاته عنا (أي اتضع)، وبذلك شفانا نحن جميعاً (من هذه الآثام). وبقوة كلمته جمعنا من كل العالم من أقطار الأرض إلى أقطارها، وأعطى لقلوبنا قيامة من الأرض، وعلمنا أننا أعضاء بعضنا لبعض.

فأنا أطلب إليكم، أيها الأحباء بالرب، أن تتأملوا المكتوب وتعلموا أنها وصايا الرب. وهذا عظيم لنا أن نعلم صورة ربنا يسوع المسيح التي اتخذها من أجلنا: لقد صار شبيهاً لنا في كل شيء، ما خلا الخطية (عب ٤: ١٥). ولذلك ينبغي لنا أن نصير أحراراً لكي نتلذذ عند إتيانه. لأنه بما اتخذها من شكل جهالتنا صرنا حكماء؛ وبمسكنته صرنا أغنياء؛ وبضعفه صرنا أقوياء (١ كو ١: ٢٤ و ٢٥ و ٣١)؛ وصار هو لنا جميعاً قيامة، وأبطل عنا سلطان الموت. فمنذ الآن استرحنا، فلا نحتاج إلى يسوع آخر بالجسد؛ لأن مجيء ربنا يسوع أعطانا عبودية صالحة وأبطل جميع الشرور. وعند ذلك قال لتلاميذه: «إنني من الآن لست أسميكم عبيداً بل إخوتى» (يو ١٥: ١٥)، وعندما اقتربوا أن يأخذوا روح البنوة علمهم الروح القدس أن يسجدوا للآب كما يجب (يو ٤: ٢٤).

فأما أنا الشقي أسير يسوع المسيح (أف ٤: ١)، فأقول إن هذا الوقت الذي نحن فيه (الآن)، صار لنا منه سرور، ثم نوح وبكاء. لأن كثيرين من جنسنا لبسوا شكل العبادة (٢ تي ٣: ٥). فبعضهم عملوا بكل قلوبهم بعد عتقهم بمجيء المسيح، فهؤلاء أسرُّ بهم. أما البعض فقد «أنكروا قوتها» (٢ تي ٣: ٥)، وعملوا بإرادة قلوبهم وأجسادهم فصار بمجيء الرب لهم عقوبة، وهؤلاء هم الذين أنوح أنا عليهم. وبعضهم فكَّروا في طول الزمان وبُعده وأضعفوا قلوبهم، فطرحوا عنهم شكل العبادة وصاروا شكل الوحوش، وهؤلاء أنا أيضاً أبكي عليهم، لأن مجيء سيدنا المسيح صار لهم أيضاً عقوبة. أما أنتم أيها الأحباء بالرب فاعرفوا هذا الوقت (رو ١٣: ١١)، وكونوا بكل القلب قرباناً لله.

٤ - إنني بالحقيقة، يا أحبائي بالرب، قد كتبت إليكم كما يكتب لأناس

ناطقين (أي عقلاء) يمكنهم أن يعرفوا المكتوب (في الكتب الإلهية)؛ لأنني أعلم أن من يعرف المكتوب فإنه يعرف الله، وهو يعرف تدابيرهِ التي يصنعها في خلايقه.

وليكن هذا الكلام واضحاً عندكم، كما تقدمتُ فقلتُ أولاً، إنني ما كتبت إليكم بحجة جسدية، بل بحجة الإله الروحانية، الذي هو ممجد في مشورة القديسين (مز ٨٨: ٨).

وكونوا عالمين بقلوبكم بالذي يطلب من الله لأجلكم النار التي ألقاها الرب يسوع على الأرض (مت ١٩: ٦) يلقاها في قلوبكم لتستطيعوا أن تتدربوا في عزائكم وحواسكم، وتميزوا بين الخير والشر، وبين أهل اليمين والشمال، والأمور الثابتة وغير الثابتة. ولأن ربنا يعرف أن الشيطان يطغى^(٢)، ولهذا أمر تلاميذه قائلاً لهم: «لا تكتنوا لكم كنوزاً في الأرض» (مت ١٩: ٦)، وقال أيضاً: «لا تهتموا بالغد، فالغد يهتم بشأنه» (مت ٣٤: ٦).

وأنا في الحقيقة أقول لكم، يا إخوتي، إنه في زمان اعتدال الرياح كل الملاحين يفتخرون؛ ولكن إذا حدث تغير في الرياح تظهر حينئذ معرفة الملاحين المهرة. فهكذا تأملوا هذا الوقت الذي نحن فيه، كيف هو (رو ١١: ١٣).

من أجل هذا الكلام وغموضه، لي كلام كثير أقوله لكم، لكن القائل يقول: «أعطِ الحكيم فرصة فيزداد حكمة» (أم ٩: ٩).

أهديكم السلام بالرب جميعاً صغيركم مع كبيركم، الذي له المجد إلى أبد الآبدين. آمين.

(٢) أي أن الشيطان يستعبد الناس من خلال عبوديتهم للمادة.

الرسالة الرابعة

لأولاده الرهبان

يعلّمهم فيها أنّ العبودية بناموس

الفضيلة ليست عبودية بل بنوّة الحرّية

أنطونيوس يكتب إلى أحبائه في الرب، السلام.
لست أمل من أن أذكركم، يا نصيب الكنيسة، وأريد أن تعلموا أن
محبي لكم ليست حسدانية، بل هي محبة روحانية. لأن شركة الجسد غير
ثابتة ولا باقية، لكونها متحركة مع الرياح الغربية.

فكل من يخاف الله ويحفظ وصاياه، هذا يكون عبداً لله.

وهذه العبودية التي نحن فيها، ليست عبودية بل هي برّ، وتودّي إلى
طريق البنوة. فمن أجل هذا اختار ربنا الأنبياء والرسل واثمنهم على
الكراسة الرسولية، فصاروا مربوطين بيسوع المسيح، كما قال بولس
الرسول: «إنني أسير يسوع المسيح، المدعو رسولا» (أف ٣: ١). وكتاب
الناموس جعل لنا عبودية صالحة، لكي نستطيع أن نتسلط على جميع الآلام
ونكمل «الخدمة الصالحة التي للفضيلة» (٢ كو ٣: ٩) التي تكلم عنها
الرسول. فإذا اقتربنا من النعمة، عند ذلك يقول لنا ربنا يسوع المسيح كما
قال لتلاميذه: «لست أدعوكم الآن عبيداً، بل أحبائي وإخوتي، لأن كل ما
سمعته من أبي أعلمتكم به.» (يو ١٥: ١٥)

والذين اقتربوا من النعمة، علموا بالروح القدس وعرفوا جوهرهم

العقلي. فلمَّا علموا وعرفوا ذاتهم، صرخوا قائلين: «إننا لم نقبل روح العبودية فنخاف، بل روح البنوة الذي به نصرخ أيها الآب أبانا» (رو ٨: ١٥). فلنعلم بما أنعم الله علينا، إذ جعلنا بنين له. وإذ صرنا بنين فنحن ورثة الله وشركاء ميراث القديسين (١ كو ٢: ١٢، رو ٨: ١٧، كو ١: ١٢).

فيا أيها الإخوة الأحباء، والوارثون مع القديسين، ليست الفضائل بأجمعها غريبة عنكم، بل هي لكم وفيكم. وأنتم لستم محتفين في هذا العالم الوقتي، بل ظاهرين لله. وروح الله لا يسكن في نفس أو جسد خاطئ (حك ١: ٤)، لأنه قدوس وبعيد عن كل غش.

وأنا بالحقيقة، يا أحبائي، أكتب إليكم كأناس ناطقين (أي عاقلين)، وقد استطاعوا أن يعرفوا ذاتهم. لأن الذي عرف ذاته فقد عرف الله. فلأجل هذا ينبغي أن نسجد له كما يجب. فالآن، إذًا، يا أحبائي بالرب، اعرفوا ذاتكم؛ لأن الذين عرفوا ذاتهم عرفوا الزمان (رو ١٣: ١١)، والذين عرفوا زمانهم استطاعوا القيام بغير اضطراب من اللغات (أي التعاليم) المتغيرة. لأن آريوس قام في الإسكندرية وذكر كلاماً غريباً عن الابن الوحيد، وجعل ابتداءً للذي ليس له ابتداء، واضطراباً للذي ليس بمضطرب. ونحن نعلم أنه إذا أخطأ إنسان لإنسان يُطلب من أجله إلى الله؛ ولكن الذي يُخطئ لله فلمن يتوجهون بالطلبة من أجله؟ (١ صم ٢: ٢٥). أما ذلك الإنسان، الذي هو آريوس، فإنه ابتداءً ببده عظيم (أي قد سلك في طريق الكبرياء) فضُرب ضربة لا شفاء لها. فلو كان ذاك قد عرف ذاته حقاً، لَمَا كان لسانه قد نطق بما لم يُعلم. فمن الواضح أنه لم يعرف ذاته، ولذلك تجاسر على سر الابن الوحيد، الذي له مع أبيه والروح القدس المجد والعز والإكرام والسجود، الآن وإلى الأبد. آمين.

الرسالة الخامسة

لأولاده الرهبان

يُحَثُّهُمْ عَلَى التَّشَبُّهِ بِالْقُدِّيسِينَ وَالْغَيْرَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ

١ - أنطونيوس يكتب لأولاده الأحباء بالرب، ويهديهم السلام.

يا أولادي الأطهار، الإسرائيليين بجوهرهم العقلي، لست بحاجة لأن أُسمِّي أسماءكم الجسدانية التي تُعْبَرُ مع الجسد، بل أُسمِّيكم بني الإسرائيليين حقاً. اعلّموا أن محبتي لكم هي روحانية وليست جسدانية؛ ولذلك لست أملُ من الطلبة إلى الرب عنكم، لكي تعرفوا النعمة التي صارت لكم، لأن الله برحمته يَنْبُئُ كل واحد بأسباب (أي بوسائل) نعمته. فلا تَمَلُّوا ولا تتكاسلوا، يا أولادي، عن الصراخ للرب نهائراً وليلاً، لتغضبوا صلاح الله الآب أن ينعم عليكم بمعونة من العلاء ويعلمكم ما يجب (أن تعملوه).

لأننا نحن بالحقيقة، يا أولادي الأحباء، قاطنون في بيت اللصوص، ومربوطون برباطات الموت، وهو حاملنا جميعاً. فلا تعطوا من الآن «نوماً لعيونكم ولا نعاساً لأجفانكم» (مز ١٣١: ٤) لترفعوا ذواتكم ذبائح للرب، بكل طهارة، وتصيروا أهلاً أن تعاینوه. لأنه بغير الطهارة، كما يقول الرسول، لا يمكن لأحد أن يعاین الرب (عب ١٢: ١٤).

واعلموا، يا أحبائي، أنكم إذا صنعتُم الخير تَنِيحُون جميع القديسين الأطهار، لأنهم لم ينالوا بعد النياح الحقيقي حتى نكمل نحن. وكذلك أيضاً - بصنعكم الخير - تعطون سروراً لطغيمات الملائكة في خدمتهم، وتُهيِّئون

فرحاً في مجيء السيد المسيح. وأما أنا الشقي، الكائن في هذا البيت البترابي، فإنكم تعطون سروراً لروحي. فأنا أعلم أن جميع القديسين الأطهار إذا رأونا نتوانى يحزنون ويقدمون دموعاً وتنهيدات أمام الخالق؛ وأن ربنا لأجل تنهيدات الأطهار يغضب على أرواح البشر، ويكسر عنا أعمالها الشريرة. فإذا رأوا التقويم والنمو، فإنهم (أي الأطهار) يُسرُّون كثيراً ولا يكفُّون عن تقديم الصلوات بكثرة عنا أمام الخالق بالسرور والفرح. فيفرح ربنا بأعمالنا الحسنة وبشهادات قديسيه وطلباتهم، ويهب لنا مواهب كثيرة.

٢ - لأن ربنا يكون دائماً مع خليقته العاملين بوصاياه، كما تقدم القول في رسائلنا.

٣ - فلنبك الآن، يا أولادي الأحباء، أمام صلاحه، ونقول كما قال المزمور: «ماذا نعطي عوضاً عن الخيرات التي صنعها معنا؟» (مز ١١٥: ١٢)، ولنقل أيضاً قول داود المزمَّر: «أى منفعة في دمي إذا هبطتُ إلى الهلاك؟» (مز ١٠: ٢٩).

هذا وأريدكم أيضاً أن تعرفوا ما أقوله لكم وأشهد به. بالحقيقة، يا أولادي الأحباء، أن كل من لم ييغض ما يختص بالطبيعة الهيولانية (أي المادية) الأرضية مع كل أعمالها بكل قلبه، ويسيطر عقله نحو العلاء لأب الكل، لا يستطيع أن يخلص. أما من يعمل هكذا كما قلت، فإن ربنا يتراءف على أتعابه ويُنعم له بالنار غير المرئية وغير الهيولانية (أي غير المادية) لتحرق كل الأوجاع التي فيه وتطهر عقله. عند ذلك يسكن فيه الروح الذي لربنا يسوع المسيح ويكون معه ليستطيع أن يسجد للأب كما يجب. فإن بقينا مصطلحين مع هذه الطبيعة الهيولانية، فنحن أعداء لله وملائكته وجميع قديسيه.

٤ - وأنا أطلب إليكم باسم ربنا يسوع المسيح، أن لا تتوانوا عن حياتكم وخلصكم، ولا تدعوا هذا الزمان الوقي يسرق منكم الزمان الأبدي الذي لا نهاية له؛ ولا هذا الجسد اللحمي أن يبعدكم من المملكة النورانية التي لا تحد ولا توصف، ولا هذا الكرسي الفاني الهالك أن يُتزلّم عن كراسي محفل الملائكة.

بالحقيقة، يا أولادي الأحباء، إن نفسي مبهوتة وروحي ساهية، كوننا جميعاً قد أعطينا حرية الاختيار لنعمل أعمال القديسين، ونحن قد سكرنا بالأوجاع؛ مثل قوم سكرنا من تلذذ الخمر، ولم نرد أن نرفع عقولنا لطلب المجد السماوي، ولم نمثل أعمال جميع القديسين، ولم نتبع آثارهم لنرث معهم المجد الأبدي.

واعلموا، يا أحبائي، أن القوات المقدسة العلوية، العقلية والنورانية، وكذلك الطبائع الحسية، هم جميعهم مخلوقون من البدء لشيء واحد هو تمجيد الله. الملائكة ورؤساء الملائكة، الكراسي والأرباب، الشاروبيم والसारوفيم، الشمس والقمر والنجوم، رؤساء الآباء والأنبياء والرسل، الشياطين والأبالسة وأرواح الشر وأراخنة الهواء؛ هؤلاء جميعهم هم إبداع الثالوث الأقدس: الآب والابن والروح القدس. فبعضهم، لأجل حركتهم الحسية، سَمَّاهم الله بحسب أعمالهم. والذين غموا بزيادة تمجدوا بزيادة من قِبَل الله، الذي له المجد والعز والإكرام مع أبيه وروح قدسه إلى أبد الأبد. آمين.

الرسالة السادسة

لأولاده الرهبان المقيمين بالقيوم

يعرفهم فيها بقتالات الشياطين ومعونات القوات المقدسة؛

ويحثهم على الصبر وتكميل ما خرجوا إليه

١ - أنطونيوس يهدي السلام إلى أولاده الأحباء المقيمين بالقيوم وأعمالها، وجميع من يتبعهم، وكل الذين يتقدمون للرب بكل قلوبهم. سلامي لكم بأجمعكم، من صغيركم إلى كبيركم، رجلاً كان أم امرأة، الذين أنتم بالحقيقة إسرائيلون.

إنكم قد نلتُم الطوبى المغبوة بحلول النعمة فيكم. لكن ينبغي لكم أن لا تتوانوا في الحرب من أجل الرب، الذي افتقدكم مشرقاً من العلاء، حتى تصيروا له ذبيحة طاهرة مقدسة.

٢ - إننا نعلم كيف سقطت الطبيعة الجوهرية من علوها إلى قعر الفضيحة والذلة، وكيف افتقدتها الإله الرحوم بناموسه، على يدي موسى والأنبياء. وفي الآخر كان ذلك بابنه الوحيد، الذي هو رئيس أبحارنا العظيم وطبيبنا الحقيقي الذي يمكنه شفاء أوجاعنا. فاتخذ جسدنا وأسلم ذاته عنا وعن خطايانا.

٣ - فهو من أجل جهلنا، اتخذ شكل الجهل، ومن أجل ضعفنا أخذ شكل الضعف، ومن أجل مسكنتنا أخذ شكل المسكنة، ومن أجل موتنا

ذاق الموت. هذه كلها صير عليها من أجلنا، وبموته خلصنا. لذلك يجب علينا أن نجاهد بمقتضى الجهاد، لكي يُسرَّ بنا جميع القديسين الذين يطلبون عنا في وقت توائنا، ويفرح الزارع والحاصد معاً.

٤ - ويجب عليكم، يا أولادي الأحباء، أن تعلموا ما أنا فيه من الألم العظيم بسبيكم؛ لأنني أنظر إلى أتعاب القديسين عنكم، وتنهدهم وطلبتهم التي يقدمونها لأجلكم كل حين أمام الله. فاحرصوا أن تماثلوهم؛ لأنهم نظروا (أي تأملوا) في تدابير خالقهم بتجسده العجيب وأتعبه لخلاصنا، وأيضاً في غباوة العدو الذي يطلب كل حين هلاكنا في الجحيم، الذي هو نصيبه مع جنده؛ لأنهم دائماً يطلبون أن يهلكونا بهذا الهلاك العظيم.

فأطلب إليكم، يا أولادي الأحباء، أن تفهموا هذا وتنظروا في تدابير خالقنا وافتقاده لنا بالبشارة الظاهرة والخفية. لأننا إذ كنا نحن المدعوين ناطقين (أي عاقلين)، صرنا كغير الناطقين، لميلنا مع هوى العدو وصانع الشر وأب الكذب.

وأريدكم أن تعلموا كم هي ربوات الملائكة، وكم هي ربوات صنائع الشياطين، وأنواعها التي لا تحصى. إنهم لما علموا أننا قد علمنا بأوجاعنا وفضيحتنا، وأننا نجتهد في الهروب من أعمالهم الرديئة العاملة فينا؛ وليس هذا فقط، بل ولا نسمع لمشوراتهم الشريرة التي يلقونها فينا، أخذوا يعملون أعمالهم بهزء. وهم يعلمون أن موهبة خالقهم صارت لهم ههنا موتاً، وقد قضى عليهم أن يُعَدَّوا ويصيروا ميراثاً للجحيم من أجل غفلتهم وكثرة خبثهم.

٥ - ولأجل هذا، يا أولادي الأحباء، لستُ أملُ من الطلبة عنكم في الليل والنهار، لكي يفتح الرب أعين قلوبكم لتنظروا كثرة وعظم مكر

الشياطين وشرهم الذي يجلبونه علينا كل يوم، وأن يعطيكم قلباً مستيقظاً وروح إفراز، لكي تستطيعوا أن ترفعوا ذواتكم لله ذبيحة حية مقدسة، وتحرزوا من حسد الشياطين لكم في كل الأوقات، ومن كل مشوراتهم الرديئة، ومضاداتهم الخفية وشرهم المستور، وأرواحهم المضلة وأفكار تجديفهم، وكل ما يلقونه فينا في كل وقت من ضعف الإيمان وسهر القلب، والاضطرابات الدقيقة التي يأتون بها كل يوم مع حزن القلب، وغضبهم ونميتهم التي يلقونها فينا لكي ينمَّ بعضنا على بعض، ونزكي ذواتنا وحدثنا وندين غيرنا، ويشتم بعضنا بعضاً، ونتكلم بلسان حلو والمرارة في قلوبنا، وندين الظاهر من غيرنا بينما اللص داخل ذواتنا، ونحارب ونقاوم بعضنا بعضاً لنقيم كلمتنا ونظهر مكرِّمين. كذلك هم (أي الشياطين) يدفعوننا إلى أعمال أخرى لا نقوى عليها ويصرفوننا عما هو لفائدتنا. وهكذا تجدهم يُضحكوننا وقت البكاء ويُكوننا في وقت الفرح؛ وهم في كل حين يقصدون إحادتنا عن الطريق المستقيم، لكي يستعبدونا بطغيانهم. وليس لي الآن وقت لكي أتكلم عن بقية شرورهم واحدة فواحدة؛ غير أنني أقول إنه إذا امتلأت قلوبنا من مثل هذه الشرور، تصير لنا كالطعام؛ حينئذ يعظم الشر فينا ويتأصل، وتكون لنا عقوبة رديئة.

فلهذا يجب علينا أن لا نملَّ من الطلبة إلى صلاح الآب، لتأتي معونته وتعضدنا في جميع أعمالنا. لأن هذه الشرور المتعددة هي كائنة (وتقود) إلى هلاكنا، وبيتنا مملوء حرباً.

٦ - وأنا أقول لكم، يا أولادي الأحباء، إن كل إنسان يتلذذ بأفكاره فهو يسقط بإرادته، لأنه يفرح بما يُلقى فيه من تلك الأشياء، ويظنها أسراراً عظيمة، ويزكي ذاته وحده فيما يصنعه، ويكون مسكناً للروح الشرير الذي

يشير عليه بالشر، ويمتلئ جسده من الأسرار المردولة الخفية. فالذي يكون هكذا، فإن أوجاع الشياطين تملكه طالما أنه لم يُلْقِهِم عنه.

فيجب علينا أن نعرف فخاخ الشياطين وحيلهم ونحيد عنها ونهرب منها. لأن الآثام والخطايا التي من الشياطين ليست ظاهرة ولا جسدية؛ لأن ليست لهم أجساد حتى يُروا، لكن نحن نصير أجساداً لهم حين تقبل نفوسنا منهم أفكار الظلمة. وعند قبولها منهم يصيرونها ظاهرة في الجسد.

فاحرصوا، يا أولادي الأحباء، أن لا تجعلوا لهم فيكم موضعاً، لئلا يأتي غضب الرب علينا، فيفرحون ويستهزئون بنا وينصرفون. فلا تطرحوا عنكم كلامي؛ فإنهم يعلمون أن حياتنا هي من بعضنا بعض. لأن مَنْ هو الذي رأى الله قط فأمسكه لئلا يبعد عنه ويفرح به ويخلصه من مضادة هذا الجسد الثقيل؟ أو رأى الشيطان جسدياً واقفاً قبالة فيهرب منه؟ بل إن الشياطين كائنون في الخفاء، ونحن نظهرهم بأعمالنا.

٧ - وجميع هؤلاء هم جوهر واحد عقلي؛ لكنهم لما بعدوا من الله صارت لهم هذه الأسماء المختلفة من أجل أعمالهم المتباينة، وثبتت عليهم كثرتها لكثرة شرورهم. وهذه الأسماء هي: شياطين، أبالسة، جنّ، أرواح شريرة، أنجاس، كفرّة، أراخنة هذا العالم المظلم، وأسماء أخرى كثيرة مثل هذه.

أما القوات السماوية فأسماءهم: رؤساء (ملائكة)، ملائكة، كراسي، أرباب، سلاطين، شاروبيم، ساروفيم. وقد ثبتت لهم هذه الأسماء لأنهم حفظوا إرادة خالقهم.

أما الذين أبغضوا ثقل هذا الجسد الذي نحن لابسوه، وقد طرحوه عنهم، فمنهم قوم دُعُوا رؤساء آباء، وبعض أنبياء، ثم ملوكاً وكهنة وحكاماً

ورسلاً. وهذه الأسماء صارت لهم، رجالاً كانوا أم نساء، من أجل أعمالهم المختلفة، وميلهم إلى الخير، وأسباب أخرى كثيرة مثل هذه. إلا أنهم جميعاً من مبدأ واحد وجوهر واحد. ولأجل هذا فمن يخطئ إلى قريبه فإنما يخطئ إلى ذاته؛ وكل من يصنع شراً بقريبه أو من يساويه في الحال، فإنما يصنعه بذات نفسه.

فمن هو الذي استطاع أن يوصل إلى الله تعباً أو راحة، أو يخدمه كما ينبغي، أو يسبحه كما يجب له، أو يكرمه حق كرامته، أو يرفعه كاستحقاقه؟ فهذا ليس بمقدورنا بسبب ثقل أوجاع هذا الجسد علينا. فينبغي لنا، إذ قد علمنا هذا، أن ننسب الله الساكن فينا بأعمالنا وسرورنا وتراؤفنا على بعضنا البعض؛ ولا نحب ذواتنا وحدها حتى لا نصير من نصيب الشرير. بل لنعرف ذواتنا؛ لأن من يعرف ذاته فهو يعرف أيضاً كل المخلوقات التي أبدعها الله من العدم إلى الوجود. ويعرف أن الطبيعة العقلية الباقية هي مخفية في هذا الجسد الذي ينحل، لترى أفعالها فيه وبه. والذي عرف هذا يستطيع أن يحب الله وحده؛ والذي يحب الرب يحب الكل.

٨ - فيا أولادي الأحياء، لاتكلموا ولا تملأوا من المحبة بعضكم لبعض؛ بل اجعلوا هذا الجسد الذي أنتم لا يسوه بحمرة ترفعون فيها جميع أفكاركم ومشوراتكم الرديئة وتضعونها أمام الرب ليرفع قلوبكم إليه. اطلبوا منه بكل قوة العقل أن ينعم عليكم بإتيان ناره غير الهيولانية من العلاء إليكم، لتحرق كل ما في تلك الحمرة وتطهرها. فيخاف كهنة البعل المضادون ويهربون من أمامكم كهروبهم أمام إيليا النبي (١مل ١٨ : ٣٨ - ٤٠)، وحينئذ تنظرون أثر إنسان طالعاً بالماء من ينبوع الإلهي ويمطر لكم المطر الروحاني الذي لروح البارقليط. فإذا نلتهم، يا أولادي، هذه المواهب الفاضلة، لا تظنوا أنها

من أعمالكم، بل هي قوة مقدسة مشتركة معكم في جميع أعمالكم.

فأنا أطلب إليكم أن تجتهدوا وتداوموا على أعمالكم الحسنة، لئسَّ بكم كافة القديسين وروحي أنا المسكين، لأننا جميعنا مخلوقون من مبدأ واحد وجوهر واحد عقلي غير مرئي.

٩ - فمن عرف ذاته يعلم أنه جوهر لا يموت، وأن ربنا يسوع المسيح هو العقل الحقيقي الذي للآب، الذي منه تحقيق جميع الطبيعة الناطقة التي خلقت كشبه صورته. لأنه هو رأس الجسد ورأس الكنيسة، كما يقول الرسول بولس (كو ١: ١٨)؛ ولهذا نحن جميعنا أعضاء بعضنا بعض، وجسد واحد للمسيح (١ كو ١٢: ٢٧). «فلا تستطيع الرأس أن تقول للرجلين: لا حاجة لي بكما، بل إذا تألم عضو واحد، فجميع الأعضاء تتألم معه» (١ كو ١٢: ٢٦ و ٢١)، كما قال الرسول أيضاً. فلأجل هذا يجب علينا بالأكثر أن نحفظ محبة بعضنا بعض. فالذي يحب أخاه يحب الله (١ يو ٤: ٢٤)؛ والذي يحب الله يحب نفسه، كما يقول الرسول يوحنا.

١٠ - إنني أطلب إليكم، يا أولادي الأحباء، أن تعلموا أيضاً أننا قد خلقنا ذوي سلطة على ذواتنا، من أجل ذلك تضادُّنا أرواح الخبث المحيطة بنا. لكن اعلّموا ما (هو) مكتوب في المزمور: «ملاك الرب يعسكر حول أتقيائه، ومن جميع أحرانهم يخلصهم.» (مز ٣٣: ٨)

١١ - وأريد أيضاً أن تعلموا أن كل الذين ابتعدوا عن الفضيلة، قد كمل فيهم غش الشياطين وتم عليهم المكتوب أنهم بنون لإبليس. لأن الشيطان سقط من رتبته السمائية لأجل كبريائه، وصار دائماً يريد أن يسقط كل الذين يتقدمون للرب بكل قلوبهم بهذه الصفة التي سقط هو

بها، أى العظمة ومحبة المجد الباطل. وبهما صارت الشياطين تحاربنا، وتظن أنها تفرقنا من الله بهما وبغيرهما. ولأنهم يعلمون أيضاً أن كل من يحب أخاه فهو يحب الله؛ فلعداوتهم للفضيلة وجنونهم، يُلْقُونَ في قلوبنا أن نبغض بعضنا بعضاً، حتى الواحد منا لا يشتهي أن ينظر أخاه أو يكلمه كلمة واحدة.

لأجل ذلك، يا أولادي الأحباء، أنا أُعَلِّمُكُمْ أن كثيرين بالحقيقة قد تعبوا في الفضيلة غاية التعب، ولعدم إفرازهم قتلوا أنفسهم. وأنا عارف أن هذا ليس بـعجيب، لأنكم إذا تكاسلتم عن العمل قبل إحكامكم الفضائل في ذواتكم، تسقطون في هذا المرض الشيطاني الذي هو عدم الإفراز. وتظنون أنكم قد اقتربتم من الله وحصلتم على النور، بينما أنتم حقاً في الظلمة كائنون.

فيا أولادي الأحباء، ما الذي أحوج ربنا يسوع المسيح حتى شدَّ وسطه بمنديل وتعرَّى وصبَّ ماء في مغسلة وغسل أرجل الذين هم دونه (يو ١٣: ٥)، إلا لأنه أراد أن يعلمنا الاتضاع، فأظهره لنا بهذا المثال الذي صنعه؟

فكل الذين يريدون الرجوع إلى رتبهم الأولى لا يمكنهم ذلك إلا بالاتضاع. لأنه من البدء كانت حركة الكبرياء هي التي أسقطت (صاحبها) من السماء. فإذا لم يكن في الإنسان الاتضاع الكثير بكل القلب، وبكل النية، وبكل الروح، وبكل النفس، وبكل الجسد، فلا يرث ملكوت الله كما هو مكتوب (١ كو ١٠: ٦، غل ٢١: ٥، أف ٥: ٥).

١٢ - بالحقيقة، يا أولادي الأحباء بالرب، إنني أطلب ليلاً ونهاراً من خالقي، الذي روحي بيده، أن يُنير عيون قلوبكم لتعلموا أولاً محبتي لكم، وبعد ذلك تنظرون خزيكم وتعرفونه. لأن من عرف خزيه فذاك هو الذي

يطلب المجد المختار الحقيقي، والذي عرف موته عرف حياته الأبدية.

وإنني أخاف عليكم، يا أولادي الأحباء، أن يُدرككم الغلاء والفقر في الطريق المؤدية إلى الموضع الذي يمكنكم أن تنالوا فيه الغنى.

إننى أشتهي أن أنظركم ههنا بالجسد، لكنني أنتظر بالأحرى ذلك الدهر الذي ليس فيه حزن ولا كآبة ولا تنهد، بل سرور وفرح لمستحقه جميعاً، وأن نجتمع هناك عن قريب وأراكم.

وبعد، فإن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم، ولكن ليس هذا وقته، بل بالأحرى الآن وقت أهديكم فيه كل واحد باسمه، يا أولادي الأحباء، السلام بالرب الذي له التسبيح من الآن وإلى أبد الأبدین. آمين.

الرسالة السابعة

لأولاده الرهبان

يعرفهم فيها أن خلاصنا ليس بملاك ولا

يانسان بل بالإله الكلمة المتجسد. ويحثهم

أن يجاهدوا بمقتضى الجهاد لينالوا الخلاص

١ - إنني أعرف «نعمة ربنا يسوع المسيح الذي تمسكن من أجلنا، وهو الغني، لكي نستغني نحن بمسكنته» (٢ كو ٨: ٩)، وتحرر بخضوعه، وتتقوى بضعفه، وتتحكم بالمستجهل من أمره، ونقوم بموته، ونصرخ مع الرسول قائلين: «إن (كنا) قد عرفناه بالجسد، فلنسا الآن نعرفه كذلك.» (٢ كو ٥: ١٦)

بالحقيقة، يا أحبائي، أقول لكم إن هذا الكلام دقيق في معناه، وعندى أقوال كثيرة فيه، ولكن ليس هذا وقت شرحها. بل أبتدى فأهديكم السلام بالرب، يا أولادي المباركين، وأعرفكم أننا نحن الذين نريد التقرب من خالقنا، يجب علينا أن نجاهد في خلاص نفوسنا من الأوجاع (موجب) الناموس العقلي.

لأنه بسبب تفاسم الغش ولذة الأوجاع وكثرة التجارب الشيطانية، ضعفت حواسنا وماتت حركات نفوسنا. ولهذا لم نستطع أن نعرف قدر جوهرنا العقلي^(٣) لسبب ما قد سقطنا فيه من الآلام. وليس لنا خلاص إلا

(٣) قارن: رسالة ٢: ٤

بربنا يسوع المسيح (أع ١٢: ٤). لأن الرسول بولس كتب أنه بآدم الأول كان الموت، وبالمسيح كانت الحياة (١ كو ١٥: ٢١ و ٢٢).

إذن فالسيد المسيح ربنا هو حياة كل الناطقين المخلوقين كشبه صورته التي هي عقل الآب الحقيقي. وصورة الآب غير منتقلة ولا متغيرة؛ أما هذه الصورة الموجودة في خلايقه فهي منتقلة (ومتغيرة). فلأجل هذا صار بها موتنا (وهي بخلاف الطبيعة العقلية)، ومنها ولدنا بجسد وصرنا بيتاً مملوءاً حرباً.

وأنا أشهد لكم وأقول، إن جميع الفضائل قد بادت منا. فلما نظر الله الآب إلى ضعفنا وأنا لا نستطيع قبول ظهوره فينا كهيبته بالحق، أرسل ابنه الوحيد فاتخذ جسدنا وتعاهد خلايقه وخدامه وقديسيه بمواهبه.

٢ - فيا أولادي المحبوبين عندي، أنا أطلب إليكم بمحبي فيكم أن تتقدموا للرب بكل قلوبكم وبكل نفوسكم، وتعلموا أن كل أعمالنا التي نقدمها للرب بالنعمة التي أعطاها لنا، ليست تقوم مقابل تواضعه عنا. لأنه ليس بمحتاج لنا، ولا أتى إلينا من أجل تواضعنا؛ بل لعظم صلاحه ورأفته علينا ولحبته غير المدركة. لم يعمل معنا كخطايانا (مز ١٠٢: ١٠)، بل جعل القمر والنجوم لخدمة هذا البيت المظلم، الذي هو العالم، لأجل قيام الجسد. وجعل أيضاً أشياء كثيرة خفية نخدمنا، أشياء لا ننظرها بأعيننا الجسدانية. أما نحن، فلأجل كثرة خطايانا، صيرنا خدمتها لنا باطلة.

فما الذي نقوله يوم الدينونة لربنا؟ لأنه ما من خير من الخيرات لم يعمله معنا هو بنفسه. لأن رؤساء الآباء لم يتعبوا عنا، والكهنة لم يعلمونا، والحكام والملوك لم يحاربوا عنا، والرسول لم يُطردوا لأجلنا، بل الابن الحبيب الكلمة مات عنا جميعاً.

لذلك يجب علينا أن نستعد بكل طهارة، وندرب عزائمنا وحواسنا المتنقلة بين الخير والشر.

٣ - لأننا نحن جميعاً لابد لنا أن نتقل ونلتقي برينا يسوع المسيح الذي أتى إلينا وخلصنا بكل تدابيره وتشبه بنا في كل شيء ما خلا الخطية (عب ٤: ١٥).

وقد كان هذا عند قوم - بسبب ما فيهم من كثرة شر الشياطين الخبيثاء - جهالة، وعند قوم شكاً (١ كو ١: ٢٣)؛ وأما عند آخرين فمففعة، وآخرين حكمة وقوة، وآخرين قيامة وحياة. فيا أولادي، ليكن هذا لكم ظاهراً أن مجيء ربنا صار دينونة لأولئك، وحياة لهؤلاء.

وأما عن هؤلاء، فيقول إرميا النبي: «ستأتي أيام، قال الرب، أجعل ناموسي في صدورهم وأكتبه على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً. ولا يعلم أحد حيثئذ من كان من أهل مدينته ولا أخاه قائلاً له: اعرف الرب لأنهم جميعهم يعرفوني من صغيرهم إلى كبيرهم وأخصصهم من ذنوبهم ولا أعود أيضاً أذكر لهم خطاياهم.» (إر ٣١: ٣١-٣٤)

وأما عن أولئك فيقول الرسول: «كفى يستدّ كل فم ويخضع العالم كله لله» (رو ١٩: ٣). لأن الذين عرفوا الله لم يمجّدوه كالإله (رو ١: ١٨ و ٢١)، لعدم معرفتهم التي لم تقبل حكمة الله؛ فهؤلاء يحمل عليهم الغضب.

والآن، يا أولادي الأحباء، إنني أنظر أن كل واحد فواحد منا قد أسلم ذاته بإرادته إلى الشرور. وهذه، بسبب جهلنا، قد تكملت فينا وتملكت علينا. ولذلك، أخذ ربنا شكل جهلنا ليخلصنا به. وأكمل كل تدابيره إلى موت الصليب، لكي بموته وقيامته، تكون لنا قيامة فاضلة، وتبطل عنا قوة الموت التي هي قوة الشيطان؛ وإذا حررنا ذواتنا وتشبهنا بتواضعه نصير تلاميذ له.

٤ - بالحقيقة، يا أحبائي بالرب، أقول لكم إنني مضطرب جداً بجسدي وروحى، كوننا تسمّينا بأسماء قديسين ولبسنا لباسهم ونحس نفتخر بذلك أمام غير المؤمنين، بينما ليس لنا قوة العمل. وأخاف أن يتمّ علينا قول الرسول: «قد أخذوا شكل الديانة، وهم لقوّتها جاحدون» (٢ تي ٣: ٥). وأنا لأجل محبتي لكم لست أفتر من الطلبة إلى الله عنكم، كي ما تفهموا حياتكم المخفية فيكم، وتعملوا ما تستحقون به أن تراثوا ما لا يُرى.

واعلموا، يا أحبائي، أننا إذا أكملنا أعمالنا بكل قوتنا كإرادته فهذا هو الواجب علينا لأنه طبيعي في جوهرنا وليس لنا فيه فضل. لأن كل من يخدم الله ويطلبه بكل قلبه، فهو يفعل ذلك بجوهره الطبيعي. فإن أتت منه خطية يُلام عليها لأنها غريبة عن جوهره الطبيعي.

فاعرفوا ذلك، واعلموا إنني لم أخف عنكم شيئاً لم أعلمكم به مما هو لخلاصكم (أع ٢٠: ٢٠). وأعرّفكم أيضاً أن الجسد مضادّ للروح دائماً، كما يقول الرسول بولس (غل ٥: ١٧). فالذين يريدون أن يتدبروا بسيرة النسك يسوع المسيح يجب عليهم أن يطردوا عنهم الشهوات الجسدية بالطلبة للرب يسوع المسيح؛ وهو برحمته وتحننه يُبطل عنهم كل الضيقات والتجارب التي تأتي عليهم من جهة الجسد، تلك التي كانت على آبائنا الرسل.

وهؤلاء بصيرهم أبطلوا قوة العدو التي هي عبادة الأوثان؛ وأعطاهم ربنا عزاء وقوة بقوله لهم: «في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن تقوّوا فإنني قد غلبت العالم» (يو ١٦: ٢٣)، وقال لهم أيضاً: «إن كانوا قد طردوا الأنبياء وطرّدوني، فسيطردونكم؛ وإن كانوا قد أبغضوني فسوف يبغضونكم» (يو ١٥: ٢٠ و١٨)، «لكن تقوّوا واعلموا أنه بصيركم تحلّون قوة العدو.» (مت ١٢: ٢٤)

وأنا أيضاً، يا أولادي المباركين، أريدكم أن تعرفوا هذا القول، وما قاله أيضاً بولس الرسول: «إن أوجاع هذا الدهر لا توازي المجد المزمع أن يظهر فينا.» (رو ٨: ١٨)

وأعلموا إنني لحيتي فيكم كلمتكم بهذه الكلمات القليلة الروحانية لتطيب قلوبكم: لأنني أعلم أن العقل إذا كان منتبهاً فلا يحتاج إلى كثرة الكلام الجسداني.

٥ - وأنا فرحٌ بالرب لأجلكم، يا أولادي المحبوبين الأطهار بجوهرهم العقلي. وأريدكم أن تعرفوا مقدار المواهب الصائرة إلينا من عند الرب لحفظنا ونمونا، وتمسكوا بالأعمال الطبيعية الجوهرية، لا بتلك الأعمال غير الجوهرية.

إنني، أنا الشقي، أعلمكم أيضاً أن ربنا قد نبّه عقلي من نوم الموت بنعمته، وقد صار لي نوح وبكاء مدة ما بقي لي من هذا الزمان اليسير على الأرض. لأنني أفكر في نفسي: «ما هو الذي نعطيه للرب عوضاً عن الذي صنعه معنا» (مز ١١٦: ١٢)؟ فقد جعل ملائكته تخدمنا وأنبياءه يتنبأون لنا ورسله يبشروننا وما هو أعظم من كل هذا إرساله ابنه الوحيد لخلاصنا.

ولذلك أطلب إليكم أن توقظوا قلوبكم بخوف الرب، وتعلموا أن يوحنا السابق عمّد بالماء للتوبة ليحتدبنا إلى المعمودية ربنا يسوع الذي عمّد بالروح القدس والنار، التي هي نار الأعمال الصالحة. فلنستعد الآن أن ننقي ذاتنا جسداً وروحاً لنقبل المعمودية ربنا يسوع المسيح ونعمل (الأعمال الصالحة) ونرفع ذاتنا قرباناً مقبولاً له. لأن الروح المعزي الذي أخذناه في المعمودية يُعطينا العمل بالتوبة ليردنا ثانية إلى رئاستنا الأولى فنرث الميراث

الذي لا يزول. واعلموا أيضاً أن كل الذين يعتمدون في المسيح فللمسيح يلبسون كما قال الرسول بولس، وينالون نعمة الروح القدس. فإنه لا عبد ولا حرّ، ولا ذكر ولا أنثى، ينال هذه النعمة إلا وتبطل منه هذه اللغات (أي الأسماء) الجسدانية، ويقبل تعليم الروح القدس الذي ننال فيه وقتئذ ميراث ملكوت السماء الأبدي والسجود للآب كما ينبغي بالروح والحق.

فلا يقولنَّ أحد منكم، يا أولادي الأحباء، إنه لا توجد لنا دينونة في يوم مجيء ربنا الأخير، بل ليعلم بالأحرى أن مجيء سيدنا المسيح الأول قد أعلن لنا أنه سيكون لنا دينونة في ذلك اليوم، إذا لم نكمل فرائضه.

واعلموا أن كل لابسى الروح يطلبون في كل وقت عنا أن نتحد بربنا، ونرث ما هو معدّ لنا منذ البدء (مت ٢٥: ٣٤)، ونلبس ثانية صورتنا الأولى الجوهرية التي تعرّينا منها بالمخالفة. لأن صوت الآب على الدوام لهؤلاء اللابسى الروح يُظهر لهم صلاحه ويُذكّرهم بالمكتوب القائل: «عزّوا شعبي، يا كهنة (الرب)، وتكلّموا في قلب أورشليم.» (إش ٤٠: ١-٢ سبينية)

وأنا أسأل إله السلام في كل حين - الذي برحمته يتعاهد خلايقه ويُظهر صلاحه فيهم - أن يعطيكم حكمة ومعرفة ونعمة وروح إفراز لتفهموا ما قد كتبته إليكم من وصايا الرب، وتعملوا بها لتحفظكم إلى النفس الأخير؛ وهو يقبل مني تضرعي الذي أقدمه إليه عن خلاصكم جميعاً، يا أبنائي الأحباء بالرب، الذي له المجد والعزاء والإكرام إلى أبد الأبدين. آمين.

توضيح وتلخيص
المبادئ الروحية الهامة
للأب متى المسكين
على الرسائل السبع الأولى

التعليق على الرسالة الأولى

أولاً: أنواع الدعوة:

القديس أنطونيوس يوضح كيفية دعوة الله لمختاريه الذين وُضِعَ لهم أن يتبعوا الله من كل قلوبهم، وجعلهم على ثلاثة أنواع. وبذلك حدّد القديس منهج الدعوة العام، وأن كل فئة جعل الله لها واسطة دعوة، بحسب طبائع الناس.

النوع الأول: نداء الروح بالحب:

هؤلاء خاطبهم الله بالروح في داخل قلوبهم معتمداً على النعمة العامة التي وهبها الله بالخلقة لكل بني البشر، وقد سمّاها القديس أنطونيوس: "ناموس المحبة الذي في طبيعتكم"، لأن المحبة هي فعل النعمة العامة في طبيعة الخليقة كالتّي تحب بها الأم أبنها، ولا يوجد أحد قط من بني البشر خلُق محروماً من نعمة المحبة التي في الطبع.

هذه المحبة الطبيعية المغروسة في طبيعة الإنسان بالخلقة الأولى تتحرّك وتعمل أيضاً تجاه الله، حينما ينفّتح ذهن الإنسان داخلياً لمعرفة الله بالحق، وحينئذ يبدأ الله بدعوته كما صنع مع إبراهيم.

وهذه الفئة جعلها القديس أنطونيوس الأولى في درجات الدعوة من حيث الترتيب، لأن نداء الله بالروح في داخل الإنسان يقابله من جهة المدعوين تصديق شديد وسعي صادق بالحب بدون تشكُّك، وهكذا حُسبت هذه الفئة الكريمة أنها أعلى الدرجات في قبول الدعوة.

النوع الثاني: انفتاح العقل بالفحص للحق:

واعتماد هذه الفئة يكون على الفهم العقلي بالاستماع أو القراءة لمواعيد الله ووصاياه، حيث يدرك الإنسان خطر الابتعاد عن الله وقيمة الاقتراب إليه.

هنا كلمة الله بالوصية تكون فاعلة في العقل، لإيقاظ الضمير، معتمدة على تقييم الإنسان للحق والباطل، ولنتائج السير وراء كل منهما.

النوع الثالث: انفتاح النفس بالتأديب:

هذه الفئة جاءت في الدرجة الأخيرة لأنها لم تستجب لنداء الروح بالحب، ولا لعمل الوصية بالكلمة في العقل، فحاطبها الله بطريق العصا؛ إذ جعل الجفاء والشدّة بالحنة وراء الحنة وسيلة لردّ النفس إلى الصواب. ولكن يوضّح القديس أنطونيوس أن النتيجة هي بعينها واحدة لكل من الثلاث فئات، مقررًا في الختام قبول الدعوة لكل فئة هكذا قائلاً: "يُدركون السيرة الصادقة حسب المواعيد"، "ثمّ هذه هي الدعوات الثلاث التي بواسطتها تأتي النفوس حتى تنال نعمة دعوة ابن الله".

ثانيًا: السلوك الداخلي بحسب الدعوة:

هنا يقدّم القديس أنطونيوس منهجاً واحداً للسلوك لجميع المدعوين مع اختلاف طريقة تربيتهم:

١ - يصف القديس حالة الإنسان، كل إنسان تائب بعد قبوله الدعوة مباشرة أي قبل الدخول والجهاد، موضّحاً أن الإنسان يكون متأثراً بدعوة الله له بشدة فجعله على مستوى الدعوة فعلاً:

(أ) يكون داخلياً إلى التوبة بكل القلب.

(ب) يكون قد اقتنى في النية بغضة لكل شهوات الجسد التي

أفسدت حياته سابقاً.

(ج) يكون ثابتاً بعزم القلب تجاه أي حرب.

٢ - يصف القديس أنطونيوس كيف يبدأ الله في التعامل مع التائب، بقوله: "قبل كل شيء"، أي دون أن يبدأ الإنسان بأي جهد من ذاته:

(أ) يبدأ الروح القدس يتخاطب مع الإنسان داخلياً "يدعوهم"، بصورة مستترة.

(ب) "ثم يجعل الجهاد خفيفاً عليهم"، حيث يشعر الإنسان التائب بقوة غير عادية تلهب قلبه وفكره وجسده للقيام بأصعب أعمال الجهاد.

(ج) يحلّي الروح القدس للإنسان التائب جميع أعمال التوبة، حتى أنه لا يشبع قط من بذل نفسه وجسده بلا أي مقابل وبدون ملل، بأعمال يقترحها الروح القدس على الإنسان، وكأنه معلّم ومدرّب خصوصي لجميع طرق ووسائل وأعمال للتوبة جديدة كل يوم، حتى يتخلص الجسد من عاداته وضعفاته ويتخلص النفس من ارتباطاتها وضعفها.

(د) لا يتركهم الروح القدس - طالما الإنسان مطيع لسرور ومجتهد - حتى يصل بالإنسان إلى التحول، أي إلى القداسة، فيتقدس الجسد: "يتطهّر"، وتتقدس النفس: "تتطهّر"، أي يتصالحا معاً لعمل القداسة.

(هـ) إزاء حرارة الدغوة وعمل الروح القدس يستجيب الإنسان بتقديمه أنواع جهاداته بفرح من صوم وسهر في الصلاة وأنواع

خدمات، وهذه يفرح بها الإنسان لأنه يستخدمها أيضاً لقمع حركات الجسد وقطع الشهوة.

(و) حراسة وتأديب، تعزية وثبات: يجرسه الروح القدس يجعل روح التوبة ملتهبة داخله، فتمنعه من الرجوع إلى الوراء، وإذا توانى يجربّه بشدة - بتجارب مصطنعة - حتى لا يجذبه العدو إلى خلف فيتعزّى ويثبت.

٣ - ثمار عمل الروح القدس في الجسد والنفس، واستجابة الإنسان بالجهاد:

(أ) يهتم القديس أنطونيوس بوضع "انفتاح النفس" في أول قائمة الثمار، لأن انفتاح النفس معناه ارتقاء الإنسان من الدرجة الجسدية إلى الدرجة النفسانية، حيث يرى الإنسان العالم ونفسه وكل شيء في العالم برؤية وفهم جديد أعلى وأجمل مما كان يراه ويعيشه.

(ب) يتبع انفتاح النفس، انفتاح الذهن: وهذا معناه نمو موهبة إدراك الفرق في الأعمال والتصرفات بين ما هو جسدي (عالم الجسديات)، وما هو روحي (عالم الروحيات). وهنا يبدأ العقل في التعليم من الروح القدس مباشرة لفهم جديد للكتاب المقدس ولكل الأمور التي تجري حوله على مستوى جديد. الروح القدس هنا يصير معلماً ومدرباً للفهم مباشرة «مبارك الله الذي أفهمني - "أي أعطاني الفهم"» (مز ١٥). وهنا يزداد الإنسان في التدقيق في تطهير كل الانحرافات الجسدية التي يسميها القديس أنطونيوس "ثمار اللحم" التي سكنت الأعضاء

واستعبدها.

(ج) بعد الموازنة من الروح واستجابة الإنسان بالجهاد المتواصل، يبلغ الروح بالإنسان إلى كمال خلقته الأولى، أي تطهيره من كل انحرافات الجسد والنفس التي يقرر القديس أنطونيوس أنها كانت من روح الشيطان، فيعود الجسد طائعاً لسلطان العقل، وهذا بدوره يكون متقاداً للروح القدس.

(د) الروح القدس تجاه الناحية الجنسية وظروف نشاطها: يحصر القديس أنطونيوس النشاط الجنسي في الإنسان في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نشاط وحركة في الجسد حسب الطبيعة، وهذا النوع يكون محكوماً بالإرادة، وحركته لا تعتبر خطية أو خطأ، بل هو عمل الخلقة.

النوع الثاني: يكون من جراء ملء الجسد بالأطعمة الزائدة عن حاجة الجسد أو المثيرة للجنس (الدهون، الأطعمة الحريفة، الخمر... إلخ)، أو إثارة الفكر أو النفس بالمنظر أو الخيالات. وهنا تفسد الحركة الطبيعية للجنس وتخرج عن حدودها فلا تصبح الإرادة قادرة على ضبطها.

النوع الثالث: وهذا يكون من عمل الأرواح الشريرة، ويعتبر القديس أنطونيوس أن ذلك يكون فقط للسائرين في منهج الكمال المسيحي بالطهارة، وذلك من حسد الشيطان لإفساد وتدنيس الجسد لمنع التائبين من الوصول إلى حالة القداسة.

ويؤكد القديس أنطونيوس بخصوص هذه الأنواع الثلاثة، أنه إذا لازم

الإنسان الانقياد للروح القدس وتصديق العقل للشهادة التي يقدمها الروح بالوصية بخصوص الطهارة، فإن الإنسان ينجو من الخطر ويحتفظ الجسد بطهارته ويحتفظ النفس بطهارتها، ولكن إذا ازدري العقل بشهادة الروح القدس التي يقدمها له في وقتها المعين (حركة تأنيب الضمير)، فإن الشرير يقوى عليه وتنهار الإرادة، ويبدأ الروح النجس يسيطر على الأعضاء ويزرع فيها المرض المستمر تجاه الشهوة مرة أخرى حتى تصبح تلتهب بصورة حرب مستعرة ضد الطهارة، ولكن لا تحملها النفس التي تستهي القداسة فتمرض النفس (الصراع).

(هـ) الروح يعمل للرجوع إلى الله بعد النكسة: حينما يشعر الإنسان بأنه قد سقط عن مشواه الروحي ورجع إلى الوراء ويبدأ يصرخ، فإن روح التوبة تأتيه مرة أخرى، فإذا تمسك بوصايا الروح تأتيه المعونة. وحينئذ يدرك الإنسان أنه كان يلزمه أن يجعل راحته في الله، وأن لا سلاماً خارجاً عن الله، فالله هو سلام النفس.

ثالثاً: الشفاء:

بعد التجربة ثم العودة من النكسات، يثبت طريق التوبة للجسد والنفس في طهارة لهما كليهما. وتبدأ علامات الشفاء كالآتي:

١ - شفاء العقل:

- (أ) يغلب العقل مجاذبات الشيطان ويبدأ يصلي بالروح.
- (ب) تتكوّن شركة بين الروح القدس وعقل الإنسان بسبب مشاركة العقل لحفظ وصايا الرب التي علم بها.
- (ج) يطرد الروح من الجسد والنفس الأوجاع التي تملكته

عليهما، وذلك بأن يعلم الروح عقل الإنسان كيف يتحايَل
حتى يطب كل جراحات النفس والأمراض التي مسكت بها
وبالجسد، ويخلص الإرادة أيضاً مما أصابها.

٢ - شفاء العين:

للنظر باستقامة وطهارة وحتى لا يكون فيها غش، كناية عن الرؤيا
المدركة لجوهر الأمور وليس لظواهرها الخادع.

٣ - شفاء الأذن:

هنا السمع يتخلص من الضعفات الأولى كالنميمة، ويبدأ ينطلق يتسمع
من الروح صوت الله في الخليقة (الرحمة التي أظهرت للخليقة).

٤ - شفاء اللسان:

خطايا اللسان تعبر عن حالة النفس المريضة وحالة العقل السقيم، فإذا
تقوّم العقل بالقوة التي من الروح القدس ويبدأ يميّز ما يسلمه العقل للسان،
حينئذ يبدأ الإنسان يتكلم بالروح.

٥ - شفاء اليد:

وأيضاً هذا يكون من تعليم الروح للعقل (القلب المتحد بالنعمة)،
وحينئذ تصير اليد أداة صلاة ورفع ذبيحة ورحمة.

٦ - شفاء البطن:

لا تعود البطن تحت تسلط الشهوة، أي أن النفس لا تشبع بسبب
امتزاجها بقوة العدو، وذلك يكون من حرب الشياطين على النفس، وحينئذ
لا تطلب البطن إلا حاجتها بقناعة في حدود تمجيد الله.

٧ - شفاء الجنس:

ويسمى القديس أنطونيوس "الشهوة التي تتحرك أسفل البطن"، وهذه لا علاج لها إلا بالروح القدس، فالروح يعلم العقل (القلب) كيف يميز الحركات التي من الطبيعة والتي من الأكل والتي من العدو، ويطفى كل الشرور المتحركة على الجسد في وقتها ويقطع منه الأوجاع، حيث الروح القدس يصير ملجأ للإنسان المتألم بالشهوة.

٨ - شفاء الرجلين:

يصيران تحت انضباط العقل المتحد بالروح (القلب الممتلئ بالنعمة) ليحركهما للسعي الصالح بفرح ونشاط.

وهكذا، يتغير الجسد كله ويتجدد ويصير تحت سلطان الروح حتى يأخذ ملء الروح القدس فيصير على شكل الجسد الروحي المزمع أن يظهر في قيامة الأبرار.

شفاء النفس:

لم يسترسل القديس أنطونيوس في التكلم عن أوجاع النفس وشفائها، ولكنه يلمح بأن أوجاع الجسد هي أصلاً أوجاع في النفس، ولأن النفس ممتزجة بأعضاء الجسد حسب الطبيعة، لذلك فالنفس المريضة بضربات العدو تصبح مرشدة للأرواح الشريرة لتأخذ طريقها لأعضاء الجسد وتعمل فيه.

ولكن يعود القديس أنطونيوس ويفصل بين بعض أوجاع النفس خاصة بها ولا يشترك فيها الجسد، مثل: الكبرياء والتفاخر والحسد والكراهية والضجر والملل، وبين بقية أوجاع النفس المعروفة.

وهذه الأوجاع لا يتم شفاؤها إلا بالتسليم الكلي لله من كل القلب،

لأن الله حينئذ يتحنن عليها ويمنحها روح التوبة، أي الروح القدس الذي يبيّن على كل خطية حتى لا تدنو النفس منها مرة أخرى، ويكشف الروح للنفس الأعداء الذين يعملون ضدها ويجاهدون لتعويق النفس عن الخروج من أيديهم، وكيف يقاومونها بشدة حتى لا تثبت في التوبة.

ولكن إذا احتملت النفس وداومت على الانقياد للروح القدس في التوبة، مع الصوم الكثير والتضرّعات والهديز في كلام الله والتجرّد من العالم والاتضاع والدموع ومداومة التذلّل (مسكنة الروح)، حينئذ يفاجئها الله بخلاص واضح.

هنا يلزم جدًّا - أيها القارئ - أن تنتبه إلى هذا المنهج الفريد من نوعه والعظيم حقًّا بكل معنى الكلمة الذي يعطيه هذا القديس النبي الملهم، فهو إزاء أوجاع الجسد أي عيوبه وخطاياه وإزاء أوجاع النفس أي عيوبها التي ذكرها، لا يعطي وصفةً من عنده لأنواع الجهادات المطلوبة ودرجاتها والأولويات فيها والثانويات، ولا يبدأ بإتقان فضيلة ويرجى فضيلة أخرى، بل أعطى إرشاداً إنجيلياً واضحاً، ويتلخّص في وصيتين:

الأولى: وهي الأساس: التسليم الكلّي لله من كل القلب حتى يتدخل الروح القدس ويعطي روح توبة كاشفاً أوجاع النفس ومبيّناً عليها.

والثانية: وهي متولّدة حتماً من الأولى أي من النعمة وهي الصوم الكثير والتضرّعات والهديز في كلام الله والتجرّد من العالم والاتضاع والدموع ومداومة التذلّل.

ولو رجعنا إلى مناهج الآباء وبعض المدرسين المتأخرين مثل: إفاجريوس (أوغريس) وغيره، لرأينا خروجاً مذهلاً عن منهج القديس أنطونيوس أبي

الرهينة وواضع أصولها وقواعد جهادها، حيث نجد عندهم تصنيفاً لأوجاع النفس والجسد على أشكال وأنواع ودرجات في مجلدات، والاعتماد الكلّي في التوبة على الجهاد الشخصي، وتقسيم الجهاد حسب الخطايا في جداول وأصول وأنظمة يتعذر بل ويستحيل على السائرين في الطريق الأخذ بها. لذلك، نحسب أن هذه الرسالة للقديس أنطونيوس تعتبر دستوراً للحياة الرهبانية ولكل جهاد روحي سليم، قابلة بل ولازمة للحفظ عن ظهر قلب.

التعليق على الرسالة الثانية

بالرغم من أن هذه الرسالة تعتبر رسالة لاهوتية في الصميم، ولكن أسلوبها البسيط والعملية يوضح لنا كيف كان الآباء يعيشون اللاهوت، لا كعلم يُدرّس ولكن كحياة تُعاش، وتعتبر هذه الرسالة خلاصة لاهوتية قريبة جداً من روح كتاب "تجسّد الكلمة" للقديس أثناسيوس الرسولي.

ونحاول هنا أن نلخص المبادئ الأساسية التي تقوم عليها رسالة القديس أنطونيوس الثانية:

■ إن استعداد الله لافتقاد الإنسان واجتذابه إليه، هو استعداد دائم منذ آدم حتى اليوم وإلى الأبد.

■ الله غرس في طبيعة الإنسان - بالتالي - نعمة القدرة على الانجذاب إلى الله كنamos فعّال في طبيعته.

■ فإذا قبل الإنسان المحييء إلى الله منقاداً بالطاعة لنااموسه، فإن الله يقبله على أساس صلاح الله، ولكن ليس حسب استحقاقه، ويعطيه نعمة بروحه القدوس لإدراك جوهر العقل.

■ وإذا رفض الإنسان المحييء إلى الله، أي رفض ناموس صلاح الله، فإنه يُستبعد للمخلوقات ويعبدها، لأنه يفقد إدراك جوهره العقلي المخلوق حسب الله.

■ ولكن بالرغم من ذلك، لا يكفّ الله عن صلاحه بالنسبة لكل إنسان، فصلاح الله لا يتوقّف عن العمل لأنه من جوهره الخالد، فكل الذين

سعوا إليه بحسب ناموس صلاح الله وتعلموا من الروح القدس وتقدموا في النعمة بلغوا في النهاية إلى روح البنوة، وسجدوا لله أي عبده كما يجب، ولكنهم لم يكملوا لأن الله لم يرد أن يكملوا بدوننا. فالكمال في الناموس القديم كان مجرد بر لا يحرر ولا يخلص، أما الكمال في المسيح فهو يبلغ إلى كمال الحرية من كل عبودية ليصير الإنسان ابناً ووريثاً بالتبني في المسيح لله.

فموسى ومن جاء بعده من الأنبياء تركوا لنا الطريق ناقصاً، وكانوا يثنون لأنه ليس من مخلص - لذلك فإن الله دبّر خلاصاً عاماً للإنسان حسب صلاحه أيضاً بواسطة ابنه الوحيد الذي تجسد واضعاً نفسه كإنسان وأخلى ذاته ليصير في صورة عبد، حتى يقدر أن يموت ليفدي الإنسان ويخلصه من خطاياه!

وهكذا، وضع في تدبيره أن يجمعنا في نفسه من كل أقطار العالم كأعضاء بعضنا لبعض.

■ فالآن المطلوب منا أن نفحص عمل صلاح الله الذي عمله في المسيح، ونتصرف على حسب فكره، حتى نستجيب لإرادته لننال روح التبني حتى إذا جاء نكون أبناء أحراراً وليس عبيداً.

■ فالآن، نحن أبناء وورثة، وهذه نعمة في المسيح معروضة علينا حسب كمال المسيح وصلاح ناموس الآب.

ولكن الحرية التي للبنين تحتاج إلى حفظ واستعلان، وهذا لا يتم إلا بالجهاد حتى يفك الإنسان نفسه من كل عبودية. وهكذا إذا لم يقم الإنسان نفسه ويتعب بكل قوته، فإن مجيء المسيح يكشف أن هذا الإنسان ليس ابناً

بل عبداً، وواقع تحت الدينونة.

النصيحة:

المطلوب من الذين لبسوا لباس الجهاد الروحي، وهو ثوب الموت عن العالم أي ثوب إدراك كامل لمفهوم الحرية والخلاص، أن لا يكونوا قد لبسوه باطلاً، أي بحسب الظاهر فقط، فينالوا بسببه دينونة، لأن أعمالنا ستمتحن قريباً بل ومنذ الآن. فالمطلوب أن لا نهمل الخلاص الذي عرفناه، والذي وضعنا في أنفسنا أن نقتنه.

التعليق على الرسالة الثالثة

تعتبر هذه الرسالة تكراراً للرسالة الثانية، مع بعض توسعات واستطرادات. لذلك وجدنا أنه من الأنسب أن نلخص المبادئ الهامة فيها:

١ - الذي يعرف نفسه يعرف تدابير الخالق وكل ما يعمل في خلّاقه، ثمّ يوضح القديس أنطونيوس أن معرفة النفس هي إدراك عميق لجوهر العقل، ويقصد بذلك استعلان طبيعة العقل المتصلة بالخلود في الإنسان (الجزء الذي لا يموت مع الجسد)، أي معرفة الإنسان المختصة بالحياة الأبدية المدعو إليها، والتي عنصرها العقلي موجود داخل الإنسان «ملكوت الله داخلكم».

فإذا انكشف للعقل جوهر حقيقة الخلود أو ملكوت الله، فإنه يدخل بسهولة بالتأمل أي بالنظرة الداخلية القلبية في دائرة «الوجود الكلّي» ويتعرّف على تدبير الله في الخليقة كلها!

وهذا في الحقيقة، يُعتبر رأسمال القديس أنطونيوس الذي اقتناه بإتقان، وعاش واستمتع به وأثمر له حياة خصيبة بالروح مليئة بالتعزيات والمعرفة.

٢ - الله «غرس» في طبيعة الإنسان «ناموس عهده». وقد اعتبر القديس أنطونيوس أن هذا الناموس «جوهر خالد». أي أنه موهوب من الله بهذا الجوهر ليكون رباطاً أبدياً بين الله الأزلي الخالد؛ والإنسان الميت الفاني حتى يرتقي إلى الخلود.

وهذا ما نسمعه في مطلع «صلاة الصلح» في القداس الباسيلي: «يا الله

العظيم الأبدي الذي خلق الإنسان على الخلود (على غير فساد). وهذا في الحقيقة يتمشى مع ما يسميه القديس أنطونيوس "جوهر العقل"، لأن ناموس عهد الله المغروس في طبيعتنا لا يدركه إلا جوهر العقل.

ويربط القديس أنطونيوس عملياً بين هذين التعريفين هكذا:

[أما بالنسبة للطبائع الناطقة (البشرية) الذي برز فيهم "العهد" ومات إدراكهم العقلي فإنهم لم يعودوا قادرين أن يعرفوا نفوسهم بحسب حالتهم (خلقتهم) الأولى، فأصبحوا جميعاً "بلا عقل"، فعبدوا المخلوقات دون الخالق.] (الرسالة الثانية)

[أما الذين كانوا على استعداد أن يأتوا إلى خالقهم بناموس عهده المغروس فيهم، إذ قد تعلموا أن يسجدوا لخالقهم كما يجب (الرسالة الثالثة)، هؤلاء تعلموا من الروح القدس وقبلوا روح البنوة (الرسالة الثانية)؛ ولكن بسبب كثرة الضعف وثقل الجسد والاهتمامات الشريرة، جفّ الناموس المغروس فيهم وضعفت حواس النفس، حتى أنّ الناس لم يقدروا أن يدركوا نفوسهم كما هي على حقيقتها بحسب خلقتها، أي في جوهرها عادم الموت (الخالد) الذي لا ينحل مع الجسد.] (الرسالة الثالثة)

وهكذا يربط القديس أنطونيوس ربطاً شديداً محكماً بين (ناموس العهد) الذي هو بتعبيرنا الآن (إدراك الحياة الأبدية)، وبين الإدراك الصحيح لجوهر العقل.

فالله وضع فينا الحياة الأبدية (الخلود)، ووضع فينا الإدراك العقلي الجوهرى الخالد الذي به ندرك الحياة الأبدية.

ثمَّ عاد القديس أنطونيوس وأوضح أن هذا الربط الشديد استطاعت الخطيئة أن تخلخله وتفككه، فلم يعد الإنسان الناطق قادراً أن يعرف نفسه لأنه فقد قوة إدراكه، أي نور جوهره العقلي، فلم يعد يحس بناموس عهد الله فيه، أي لم يعد يحس بالحياة الأبدية التي فيه والتي هو مدعو إليها في صميم تكوينه.

ثمَّ يعود القديس أنطونيوس، ويبني على ذلك مبدأً إنجيلياً هاماً، وهو أنه إذا فقد الإنسان إدراكه لجوهره العقلي، وبالتالي فقد إدراكه لناموس عهد الله المغروس فيه أي الحياة الأبدية، فإنه يستحيل عليه أن يسترده ببرّه الشخصي.

[هذا الجوهر (عدم الموت) لم يكن ممكناً أن ينعق ببرّه الخاص.]

(الرسالة الثالثة)

فابتدأ الله يعوِّض عن هذا بإعطاء الناموس بيد موسى. ولكن الناموس لم يشفِ ضربة الإنسان بالخطيئة التي فرَّقته وأفقدته وحدة جوهره العقلي، وأسقطته إلى شهوة الجسد بعيداً عن دعوته العليا، فأرسل الله ابنه الوحيد ليجمع (بكلمته وبموته) الإنسان المتفرِّق من كل أقطار العالم، لنكون أعضاء بعضنا لبعض، ويعطينا القيامة من الأرض.

ومن أبرز المبادئ الأخرى التي يتكلَّم عنها القديس أنطونيوس في هذه الرسالة، تأكيدُه لحقيقة الشفاعة التي هدفها إعطاء نار الروح القدس:

[لأن الله ممجَّد في مشورة القديسين (مز ٨٩: ٨)، فأعدوا نفوسكم إذ لكم شفعاء يطلبون إلى الله لأجل خلاصكم، لكي يسكب في قلوبكم تلك النار التي جاء يسوع ليلقيها على الأرض.] (الرسالة الثالثة)

التعليق على الرسالة الرابعة

أولاً: تحمل هذه الرسالة تأكيداً لمفهوم أن المؤمنين القديسين هم أعضاء الكنيسة، كما أنه في الرسالة الثانية يؤكد أن المؤمنين أعضاء بعضهم لبعض. وهكذا تكتمل الصورة اللاهوتية التقليدية لمفهوم الكنيسة عند القديس أنطونيوس أن الكنيسة هي أعضاء لجسد واحد.

ثانياً: ولكن لعل أعظم وأخطر ما تحمله هذه الرسالة هو شرح المبدأ الروحي واللاهوتي بأن واحد الذي يوضح لنا خلاصنا كعلامة داخل حياتنا يشهد لها الروح القدس وسلوكنا - ويشرح القديس أنطونيوس بلوغ التبني هكذا:

١ - مخافة وحفظ الوصايا:

[إن كل مَنْ يخاف الله ويحفظ وصاياه هذا يكون (عبداً لله).]

ولكن هذه العبودية ليست هي الكمال، بل هي مجرد "البر" الذي يؤدي إلى "التبني". هنا يشير القديس أنطونيوس إلى أن العمل بالوصايا يوصلنا إلى البر بالتسلط على الخطية، وهذا يؤهلنا للتبني لله.

٢ - غلبة الخطية وخدمة الفضيلة:

[لأن الناموس يعمل معنا في عبودية صالحة (لله) إلى أن نصبح قادرين أن نسود على كل خطية (ألم)، ونصير كاملين في الخدمة الصالحة التي للفضيلة بواسطة دعوة الرسل (الإنجيل)].

٣ - الدخول في النعمة وعمل الروح القدس لقبول نعمة التبني:
(أ) [فإن الذين اقتربوا من النعمة وتعلموا بواسطة الروح القدس،

عرفوا نفوسهم بجواهرهم العقلي، وفي معرفتهم لنفوسهم صرخوا قائلين: (لأننا لم نقبل روح العبودية أيضاً للخوف بل روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب). فإنه حينئذ نعلم بما أنعم به الله علينا (وإن كنا بنين فنحن ورثة لله وشركاء ميراث مع القديسين) رو ٨: ١٧].

(ب) يعطي القديس أنطونيوس العلامة التي لها الشرط الأساسي لقبول الروح القدس الذي يعطي التبني ويشهد لنا وفي داخلنا أننا أبناء الله وشركاء القديسين في ميراث المسيح هكذا:

[إذا لم تكونوا (مختفين) تحت الإثم في هذه الحياة الجسدية بل تكونوا ظاهرين أمام الله لأن الروح لا يدخل (يسكن) نفس إنسان قلبه نجس أو في جسد يخطئ لأنه قوة مقدسة (قدوس) وبعيد عن كل غش].

التعليق على الرسالة الخامسة

هذه الرسالة رسالة وعظية بالدرجة الأولى، وفيها يلح القديس أنطونيوس على أولاده الرهبان في كل مكان أن يهتموا بمبادئ الخلاص الأساسية: وحتى المبادئ اللاهوتية العامة التي يكررها دائماً في رسائله، أخضعها القديس أنطونيوس في هذه الرسالة لتخدم اتجاهه الوعظي لتوضيح قيمة وخطورة الخلاص المقدم لنا.

المبادئ الروحية العامة:

أولاً: إن لا يهتموا بأسمائهم وألقابهم التي تزول.. ثانياً: أن المحبة الروحية إذا ارتفعت فوق الاعتبارات الجسدية والزمانية، تجعل الأب الروحي يهتم الليل والنهار بأولاده.

ثالثاً: المبدأ العام الذي سبق أن ذكره القديس أنطونيوس أن الله على مدى الدهور لا يكفّ عن افتقاد البشرية، ومنذ بداية العالم يصنع تدبيراً لخلاص الإنسان؛ عاد وطبّقه القديس أنطونيوس هنا على كل إنسان، أن الله على مدى حياة كل واحد لا يكفّ أن ينبه بالأوقات المناسبة للتوبة والعودة إلى الله وبالزمن المناسب لقبول نعمة الله!

رابعاً: لكي يدرك الإنسان زمان خلاصه والوقت المقبول لعمل النعمة وافتقاد الله له، لابد أن يكون الإنسان على أعلى حالة من الاستعداد القلبي بقدر الطاقة البشرية:

[فالآن، يا أولادي، لا تغفلوا عن أن تصرخوا نهاراً وليلاً إلى الله لتستعطفوا صلاح الآب حتى ينعم لكم بمعونة من السماء ويعلمكم

حتى تعرفوا ما هو الصالح لكم.] (الرسالة الخامسة)

خامساً: لأن الموت قريب منا جداً، ونحن حاملون أسبابه في كياناتنا أو بالحري (نحن قاطنون في الموت)، ولأن العالم شرير ومحسوب أنه بيت الشيطان (العالم كله قد وُضع في الشرير)، فلذلك يحسب القديس أنطونيوس باختصار للذيد "أنا قاطنون في بيت اللص".

ولأننا مهما هربنا من الموت وأسبابه بالأفراح والتسلّيات الكاملة، (فنحن مربوطون في الموت)، وسوف يشدنا الموت يوماً لنكون من عداد سكان القبور.

لذلك، يطلب القديس من الإنسان الذي له بصيرة ويفهم هذا كله، أن السهر أصبح ضرورة لكي يحفظ الإنسان وديعته التي سيسلمها لله طاهرة وهي نفسه وجسده بكل قداسة السيرة (لأنه بدون قداسة لا يقدر أحد أن يعاين الله).

سادساً: عن الشفاعة ومفهومها:

يربط القديس أنطونيوس بين أعمالنا وسلوكنا (كأعضاء مع القديسين في جسد المسيح)، وبين بقية أعضاء جسد المسيح في السماء، فالخير والمحبة التي نقدّمها للآخرين هنا تريح نفوس القديسين وتفرّج الملائكة في السماء وتجعلهم يشهدون لنا ويتشفعون عنا "بطلبات وابتهاج ومسرّة أمام الله"، "وبسبب ذلك يفيض علينا المواهب الروحية بلا كيل". والسيرة الرديئة وأعمال الشر الذي نقدّمه للآخرين "إذا مرضنا وانحطّت حالتنا"، فإن ذلك يسبب حزناً وتنهدات لجميع القديسين والملائكة في السماء، ومن أجل ذلك يأتي غضب الله على أبناء المعصية.

إذن، فالقديس أنطونيوس يؤكد أنه لا شفاعة قط تنتظرها من القديسين بدون مسيرة المحبة الشديدة التي نعيشها مع كل الناس، وكأن أعمال المحبة هي التي تعطي فرصة للقديسين لكي يطلبوا عنا. سابعاً: يحذر القديس أنطونيوس المتوانين أنه سيصيبهم قول المزمور: «أية منفعة في دمي إذا هبطت إلى الجحيم (الهلاك)»، لأنهم «أخذوا صورة التقوى ولكنهم أنكروا قوتها».

ثامناً: الدواء:

يعطي القديس أنطونيوس الدواء للمتوانين حتى يخلصوا هكذا: ١ - "طالما نحن مصطلحين مع طبائع العالم فنحن سنظل أعداء الله وملائكته وجميع قديسيه": «محبة العالم عداوة لله».

لذلك، يلزم "أن يبغض كل إنسان كل ما يختص بالطبيعة الأرضية، ويرفضها وكل أعمالها بكل قلبه" (أي لا ينحذب إليها فيقع في عشقها، وحينئذ تلفة برباط الموت فلا يقوم، ولكن يستخدمها بحذر كإنسان يحفظ حذره من عدو يلزم أن يتعامل معه).

٢ - لا يكف عن رفع قلبه كمن يرفع يديه إلى السماء.

٣ - يتعهد القديس أنطونيوس أنه إذا أكمل أي إنسان مشورته هذه "فإن الله يتزأف عليه لأجل تبعه وينعم عليه بالنار (الروح القدس) غير المرئية لتحرق كل نجاسة منه فيطهر جوهر عقله، وعند ذلك يسكن فيه الروح القدس، ويسوع يمكث معه (ويحل المسيح في قلبه)، ويبدأ يسجد لله كما يجب".

(لاحظ هنا تكرار تنبيه القديس أنطونيوس لأهمية السجود لله كما يجب - وليس بالجدد وحسب، الذي هو في الحقيقة أقوى ما يستطيع أن يقوم به

الإنسان للتعبير عن روح الخضوع والعبادة أمام الله لنوال قوة إلهية، وليذكر القارئ مدى التركيز الذي يعبر عن ذلك في قول المسيح: «الله طالب الساجدين له بالروح والحق».

توسُّلات القديس أنطونيوس:

- ١ - لا تهملوا خلاصكم.
- ٢ - لا تدعوا هذه الحياة الوقتية تحرمكم من الحياة الأبدية.
- ٣ - لا تدعوا الجسد اللحمي الذي سيفسد (ويأكله الدود) يبعدكم عن مملكة النور.
- ٤ - لا تدعوا الكرسي الأثيم (مجرة الرئاسة والجلوس على كراسي الحكم بين الناس)، يفقدكم حق الجلوس على عروش القضاء الملائكية: «ألا تعلمون أننا سندين ملائكة».
- ٥ - لا تتلذذوا بالخطايا كمن يتلذذ بسكر الخمر (حتى يصبح عبداً لها).
- ٦ - لا تبيعوا أنفسكم بخرية إرادتكم فتقعوا باختياركم تحت تسلُّط العادات الشريرة والأعمال الفاسدة.
- ٧ - ارفعوا عيونكم إلى السماء، اطلبوا مجد السماء، اعملوا عمل القديسين، وأمامكم سيرتهم، فسيروا على آثار خطواتهم (أي أعمالهم).

مبدأ لاهوتي هام:

[إن جند السموات المقدَّسين والملائكة ورؤساء الملائكة والعروش والأرباب والشاروبيم والساووفيم، ورؤساء الآباء والأنبياء والرسل، والشیطان وكل الأرواح الخبيثة مع أراخنة الهواء،

كذلك كل رجل أو امرأة،

الكل كان مستوى خلقتهم واحدة من الله الثالوث المثلث غير المخلوق، ولكن الذي فرّق الرتب والأسماء هو سلوكهم وأعمالهم].
[والذين نموا بزيادة مجدهم بزيادة].

هنا يشير القديس أنطونيوس إشارة عميقة وخطيرة، أن الأعمال والسلوك هما المسئولان عن الترقّي في المجد سواء لدى السمائيين أو الأرضيين.

ويشرح القديس أنطونيوس بتوضيح أكثر في الرسالة السادسة، معنى مبدأ وحدة مستوى الخلق في جميع المخلوقات السمائية العاقلة الصالحة والشريرة، والإنسان العاقل الصالح والشرير بقوله: "وجميعهم هم من مبدأ واحد في جوهرهم العقلي"، أي أن العنصر المشترك بين البشر وبين السمائيين سواء كانوا ملائكة أو شياطين هو "الجوهر العقلي"، والعنصر المشترك الذي أُعطي لهم كواسطة للترقّي أو الانحطاط هو العمل لحفظ إرادة الله بحسب مواهب وقدره كل جنس.

التعليق على الرسالة السادسة

رسالة موسعة تشمل معظم ما جاء في الرسائل السابقة مع زيادات إنما بصيغة عملية للوعظ. وهذا يلاحظ في جميع رسائل القديس أنطونيوس أنها تحمل مضموناً موحداً أو مبادئ أساسية يختار منها القديس في كل رسالة ما يناسب الجماعة المرسل إليها.

كذلك يلاحظ أن بتدرُّج الرسائل في ترتيبها تزداد هذه المبادئ وضوحاً، مما يشير أن بتقدم القديس في الأيام تتسع عنده أفق هذه المبادئ بالخبرة.

المبادئ العامة الواردة في هذه الرسالة:

أولاً: الجوهر العقلي الذي طالما يذكره القديس في كل رسالة متقدماً في شرحه أكثر فأكثر، يوضِّحه هنا هكذا:

(أ) [ينبغي أن تفهموا أن الجوهر العقلي ليس في ذكر ولا أنثى بل هو جوهر غير مائت له بداية وليست له نهاية].

(ب) [أن الجوهر العقلي هذا سقط كله معاً (ذكر وأنثى) إلى الفضيحة

والذلة العظيمة التي أتت علينا جميعاً (أي بسبب الخطية)]. ويشرح

القديس أنطونيوس هذا السقوط - جزئياً - في الرسالة الثانية هكذا:

[أمّا بالنسبة لأولئك الذين برد فيهم العهد (المغروس في طبيعتهم)

وانطفأ إدراكهم العقلي حتى أنهم لم يعودوا قادرين أن يعرفوا

نفسهم بحسب حالتهم الأولى، فعن هؤلاء أقول إنهم أصبحوا

جميعاً بلا عقل، فعبدوا المخلوقات دون الخالق].

(ج) [لكنه جوهر غير مائت لا يتحل مع الجسد]. وفي موضع آخر من

الرسالة يقول: [إن طبيعتنا العقلية مخفية في هذا الجسد المنحل، ولكن لا تنتمي إليه من البدء وسوف تتحرر منه].

(د) من هنا يرى القديس أنطونيوس أنه قد حصلت مضادة خطيرة في خلقة الإنسان وكيانه لأنه يحمل جوهرًا عقيمًا غير مائت وغير منحل، قادراً أن يوصله إلى قمة المجد بالاتصال بالله، وفي نفس الوقت سقط في خطية أبعدته عن الله وأفقدته نعمة الوعي (النور الحقيقي) والإدراك لعمل جوهره العقلي الخالد وصلته بالله.

من هنا يقرر القديس أنطونيوس أن هذه مصيبة عظيمة، من حيث إن الإنسان يحمل جوهرًا خالداً قادراً أن يوصله إلى المجد، وفي نفس الوقت هو محروم من عمله، ويعبر عنه هكذا:

[ولهذا رأى الله أن هذا الجرح عديم الشفاء!! ولأن هذا الأمر كان خطيراً افتقد البشرية برحمته وبصلاحه، بالناموس ليشفي هذا الجرح العظيم، ولكن الناموس بقي ناقصاً، وأخيراً أرسل لنا المخلص ابن الله (الإله) رئيس الكهنة الأعظم والطبيب الحقيقي القادر أن يشفي هذا الجرح العظيم. فأرسل ذاته للموت على الصليب من أجل خطايانا، وبجرحه شُفينا جميعاً (إش ٥٠: ٣٥)].

ثانياً: ويعود القديس ويؤكد مبدأ شفاعة القديسين، إنما بصورة غاية في الدقة اللاهوتية هكذا:

[وينبغي أن نصلي ونستعطف صلاح الآب حتى يرحمنا، وبهذا نعطي مسرةً للمسيح عند مجيئه، وقوة للقديسين الذين يعملون من أجلنا - ويطلبون من أجلنا - وقت توانينا، وننهض غيرتهم لكيما يعينونا وقت شدتنا، حينئذ يفرح الزارع والحاصد معاً. وأريدكم أن

تعلموا، يا أولادي، ما أنا فيه من حزن عظيم لأجلكم حين أرى الاضطراب (الانحلال) القادم علينا جميعاً، وأتأمل تعب القديسين العظيم وتنهدياتهم التي يرفعونها أمام الله لأجلنا].

وواضح هنا أن القديس أنطونيوس لا يقول أن نستعطف أرواح القديسين من أجل شفاعتهم، بل نصلي ونستعطف صلاح الآب وحينئذ يبدأ القديسون يتشفعون عنا من تلقاء أنفسهم، بل وأكثر من هذا أننا نحن بصلواتنا واستعطافنا لصلاح الآب نعطي هؤلاء القديسين قوة ونهض غيرتهم للشفاعة.

ثالثاً: يجمع القديس أنطونيوس أعمال الشيطان تجاه أجسادنا ونفوسنا في النقاط الآتية:

١ - إن كل مشورات الشيطان وخداعاته الشريرة، وكل الشرور التي يتفكر بها دائماً علينا لهلاكنا، ظاهرة ومرئية لأرواح القديسين. لذلك فإنهم يكثرون من جهادهم وتنهدياتهم التي يرفعونها أمام الله لأجلنا.

٢ - الأرواح الشريرة تحسدنا حينما يعلمون أننا بدأنا نحاول أن نرى خزينا، وبدأنا نطلب طريق الهروب من أعمالهم، ونرفض مشوراتهم الشريرة التي يزرعونها فينا.

٣ - هم يحسدوننا ويقاوموننا في الخفاء بشرورهم المستورة، ويلقون في قلوبنا روح الضلالة مع أفكار تحديف وشكوك مع قساوة القلب مما يضعف قلوبنا يوماً بعد يوم.

٤ - يعلموننا الغضب، وتزكية الذات فيما نعمله، والدينونة التي ندين بها إخواننا حتى ولو كانوا بعيدين عنا، والازدراء

بالآخرين في عُجب وكبرياء وقساوة قلب حتى تحتقر بعضنا البعض وتكلم بمرارة وندين بعضنا البعض بكلام صعب حتى نحزن الآخرين.

٥ - يوهموننا أن أتعابنا التي تواجهنا هي بسبب إخوتنا، فنبداً ندين ما هو حسب الظاهر مع أن اللص بعينه (الشيطان) كامن داخل بيتنا.

٦ - يلقون بيننا المنازعات والانقسامات التي بها نحارب ونقاوم بعضنا البعض لتقيم كلمتنا، ونظهر أننا مبررون أمام الآخرين: [وأولاد إبليس أعداء الفضيلة يزرعون الانقسامات في قلوبنا لكي نمتلئ عداوة عظيمة تجاه بعضنا البعض حتى لا نحادث قريبنا ولو من بعيد].

٧ - الأرواح الشريرة يحسنون لنا أعمالاً (جهادات) لا نقوى عليها، حتى تضعف وتفسد أعمالنا الأخرى التي هي نافعة لنا. وهكذا يجعلوننا نصحك في وقت ينبغي فيه البكاء (شبابنا)، ونبكي في الوقت الذي كان ينبغي أن نفرح فيه (شيخوختنا)، وهكذا تجدهم دائماً يحاولون أن يبعدونا عن الطريق المستقيم.

٨ - كل إنسان يُسرُّ بإرادته ويُغلب من أفكاره، وينشغل بالأمور التي يزرعها (العدو) في قلبه، ويفرح بها ظاناً أنها أسرار عظيمة مختارة مزكياً ذاته فيما يصنعه، فإن نفس ذلك الإنسان تكون مسكناً للأرواح الشريرة التي تشير عليه بالشر، وجسده يكون مكنماً للأسرار الشريرة التي تختفي فيه، وعلى مثل هذا الإنسان تتسلط الأبالسة بقوة عظيمة لأنه لم يردنهم أمام جميع الناس.

٩ - الشيطان ليست له طريقة واحدة في الحرب!! حتى نعرفها ونهرب منها. فالأرواح النجسة ليست لها أجساد حتى تظهر أعمالها الشريرة، ولكننا نحن نقدم لهم أجسادنا لخدموا الشر بها، حينما نقبل شرورهم بأنفسنا. فحين نقبلها نجعلها ظاهرة في أجسادنا، فاحرصوا أن لا تجعلوا لهم فيكم موضعاً لئلا نحرّك غضب الله علينا فيفرحون هم ويستهنئون بنا. فهم كائنون في الخفاء ونحن نظهرهم بأعمالنا!

رابعاً: وإزاء أعمال الشيطان يقدم القديس أنطونيوس ما يعمل الله معاً:

١ - [صلوا إلى الله لكي ينعم عليكم بإتيان ناره العظيمة غير المريية من السماء (تطهير الروح القدس)، لتحرق المذبح وكل ما عليه (تطهير الجسد والنفس وكل ما لهما)، فتخاف كل كهنة البعل التي هي أعمال العدو المضادة وتهرب من وجهكم، ويؤتيكم المطر الروحاني الذي هو عزاء الروح القدس].

٢ - [افهموا أن قوة مقدسة تعينكم على الدوام، فجاهدوا لكي تقدّموا نفوسكم دائماً كذبيحة لله لتعطوا فرحاً للقوة التي تعينكم].

٣ - [اصرخوا لخالقكم ليلاً ونهاراً لكي تأتيكم معونة من العلاء وتحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح].

٤ - [إن لطف الله لم يتوقف لحظة واحدة منذ حركته الأولى حتى اليوم أن يعمل لنا الصلاح، حتى لا نجذب لنا موتنا بإساءة استعمال حرية إرادتنا التي خلقنا عليها، ولهذا السبب فملائكة الله محيطة بنا كل الأوراق المكتوب «ملاك الله حال حول خائفيه

لينجيهم» (مز ٣٤: ٧).

٥ - في الرسالة السابعة يضيف هكذا: [وقوات أخرى أيضاً خفية جعلها خداماً لنا، قوات لا نراها بعين الجسد].

خامساً: النسك بدون اتضاع حقيقي مقتل للإنسان:

[كثيرون اتبعوا النسك في حياتهم إلا أن عدم الإفراز قتلهم، فإذا أهملتم نفوسكم ولم تميزوا أعمالكم تسقطون في يد إبليس، وفي الوقت الذي تظنون أنكم قريبون من الله تسقطون في يد إبليس، وفي توقعكم النور تغطيكم الظلمة!! لأنه ما الذي أحوج يسوع أن يشد وسطه. عندئذ يغسل أرجل الذين هم دونه؟ أليس لكي يجعل هذا مثلاً، ليعلم كل الذين يريدون أن يتجهوا إليه كيف يبتدئون بالاتضاع وليس بالتعالي والكبرياء. وهذا هو السبب أنه من دون الاتضاع العظيم من كل القلب والعقل والروح، بالنفس والجسد لا تقدر أن ترثوا ملكوت الله].

نصيحة أخيرة:

الذي يعرف خزيه، يعرف كيف يطلب النعمة.

الذي يعرف موته، يعرف كيف يطلب الحياة.

التعليق على الرسالة السابعة

رسالة تحمل شرحاً أوفر للمبادئ السالفة، من جهة الجوهر العقلي
يضيف القديس أنطونيوس على ما سبق:

١ - أن الجوهر العقلي قد يفسد عمله، وبالتوبة والرجوع إلى الله يتطهر
[أنتم أطهار في جوهركم العقلي].

٢ - أننا بالخطية سقطنا في الموت فماتت الحواس المدركة لعظمة الجوهر
العقلي [صورة الله الكلمة اللوغس].

٣ - في آدم مات الجميع (بالروح) وفقدوا إدراكهم لجوهرهم العقلي
(صورة اللوغس) الذي يعني المعرفة الروحية والبصيرة التي بالروح
القدس التي تعيد الصلة التي تربطنا بالله فنذكر كل أمور الله
[فالآن هو حياة كل طبيعة ناطقة خلقت بواسطته على صورته،
الذي هو نفسه العقل الحقيقي للآب].

٤ - نحن خلقنا على صورة الله ومن جهة جوهرنا العقلي خلقنا على
صورة "الكلمة اللوغس". ولكن "كلمة الله اللوغس" جوهر
غير متغير لأنه غير مخلوق، لذلك يقول القديس أنطونيوس إن
المسيح [هو صورة الآب غير المتغير]، أمّا نحن فبالرغم من أننا
مخلوقون من جهة جوهرنا العقلي على صورة الكلمة، ولكن لأننا
مخلوقون، فجوهرنا العقلي قابل للتغير (النمو في المجد بالاقتراب من الله
أو السقوط بعيداً عن إدراك الله).

[أمّا الخليقة (الآدمية) المصنوعة على صورته فهي من جوهر قابل

للتغيير].

٥ - وبسبب أن جوهرنا قابل للتغيير (أصلاً للترقي للمجد بالاقتراب من الله) سقطنا في الشر، وبه متنا (موتاً روحياً أي توقّف الجوهر العقلي عن إدراك الله).

٦ - الخطية والموت ليسا من طبيعة الجوهر العقلي، بسبب هذا دخل الإنسان في حالة "الصراع والحرب" في أعماقه بين جوهره العقلي الميال للترقي والمجد بالاقتراب من الله، وبين عنصر الشر الدخيل بفعل التأثير الخارجي الذي يدفعه بعيداً عن الله والنور.

[لهذا بواسطة كل ما هو غريب عن الطبيعة جعلنا نفوسنا بيتاً مظلماً ملوئاً حرباً. وبناء عليه فقدنا كل معرفة بالفضيلة].

٧ - لهذا أصبح لا خلاص إلا بتدخل اللوغس، عقل الآب (شمس البر) لإعادة الجوهر العقلي إلى كامل خلقته الإلهية وإلى نوره الأول.

[لهذا فهو من صلاحه أتى ليفتقد خليقته (صورته) ... ولم يعاملنا بحسب خطايانا ... لأنه الخالق رأى أن الخليقة، حتى القديسين، لم يقدرُوا أن يشفوا هذا الجرح، فأظهر رحمته بحسب حبه العظيم، فأسلم ابنه للموت عن خطايانا، فخطايانا نحن هي التي أدّته حتى الموت ليشفيها جميعاً].

٨ - العودة إلى صحة الجوهر العقلي (الخلاص) لا تحدث مرة واحدة، بل تحتاج أولاً إلى معرفة كاملة للتدبير الذي أكمله الرب يسوع من أجلنا على الصليب، بالقراءة والفهم ثم تدريب الذهن حتى تكمل استنارته.

[لهذا يليق بنا أن نقترّب إلى خالقنا بأن ندرّب عقولنا وحواسنا حتى نفهم ونتميّز بين الخير والشر ونعرف التدبير (الخلاصي) كله الذي صنعه يسوع بمجيئه].

٩ - الظلمة لا تزال تخيّم على الكثير بالرغم من النور الذي دخل العالم، لذلك دخل مع الخلاص عنصر الدينونة للرافضين النور الذين أحبوا الظلمة.

[ولكن لسبب شرنا العظيم وتحريك الشر وعدم ثباتنا المخزي، صار مجيء يسوع عند البعض جهالة، وللبعض الآخر حجر عثرة، بينما صار لكثيرين منفعة وحكمة (استنارة) وقوة وقيامة وحياة].

[لذلك ليكن هذا معلوماً عندكم أن مجيئه صار دينونة للعالم كله].

[ولكن إن كنا حقاً نحرر أنفسنا بمجيئه فإننا نصير تلاميذ ليسوع وننال فيه الميراث الإلهي].

١٠ - فالآن، يلزم [أن تعتبروا كثيراً حياتكم ... وحتى إن كنا نقدّم أنفسنا بكل قوتنا لكي نطلب الرب، فإننا نطلب ما هو طبيعي لجوهرنا، لأن كل من يطلب الله ويخدمه إنما يفعل ما هو طبيعي لجوهره، وإن كنا حينئذ نلام ونُدان على كل خطية، فذلك لأنها غريبة وغير طبيعية مع جوهرنا].

[فإذا اقتنى العقل إدراكه السليم (بحسب جوهره الأصلي) فإنه لا يعود في حاجة بعد إلى (مماحكة) الكلام الباطل الذي بحسب الجسد].

١١ - والإنسان العاقل (الذي عاد إلى صحة جوهره العقلي) فإنه يبدأ

يعرف نفسه (يعرف كل الدوافع التي تنبع منها أعماله وأقواله إن كانت من الله أو العدو)، وبذلك يؤهل لمعرفة أمور الله وكل الإحسانات التي تظهرها نعمته نحوه، ويعرف أيضاً كيف أن كل خطية وكل إثم إنما هي غريبة عن طبيعة جوهره العقلي.

١٢ - [الخالق رأى أنه بحرية إرادتنا ملكننا هذه الأمور غير الطبيعية (الخطية والشر) وهي التي سببت موتنا الروحي. لهذا تحرك الله بالرأفة علينا وأراد بصلاحه أن يردنا إلى البدء الخالد الذي لنا (الذي بلا نهاية)، (أي يردنا إلى صحة جوهرنا العقلي المهيأ للحياة الأبدية)].

١٣ - [بالروح تقدسنا في المسيح. وهذا الروح (القدس) هو يعزينا ويردنا ثانية إلى رتبنا الأولى لنستعيد ميراثنا وامتلاك الروح القدس، المعزي نفسه (لأن كل الذين اعتمدوا للمسيح قد لبسوا المسيح)].

١٤ - عندما نقبل المعمودية للمسيح وننال التبني ونلبس المسيح ونأخذ ميراثنا الأبدي ونقتني الروح القدس، يقول القديس أنطونيوس إننا نكون قد تبرأنا من الدينونة العتيدة أن تأتي على العالم [فلا ينتظرون دينونة (أخرى) مستقبلية عند مجيء يسوع لأن مجيئه الأول قد صار بالفعل دينونة (قضاء وبراءة) لنا جميعاً].

شفاعة القديسين تنصب على عودة صحة ونور جوهرنا العقلي:

يعود القديس أنطونيوس ويؤكد شفاعة القديسين وهدفها العجيب:

[القديسون والأبرار لابسو الروح يطلبون لأجلنا دائماً لكي نتضع أمام الله، ونلبس ثانية الثوب الذي كنا خلعناه عنا (ثوب العرس) في

جوهرنا العقلي].

[ولهؤلاء القديسين لا يسي الروح (في السماء) يقول الله عزوا شعبي! لأن الرب يفتقد خليقته دائماً وينعم عليها بصلاحه].

يلاحظ هنا أن القديس أنطونيوس يلتقط من أمر الله للقديسين (عزوا شعبي)، إن هذا الأمر فيه دلالة واضحة أن المعونة التي تقدمها أرواح القديسين لنا، وأن تعزيزهم وتشديدهم لنا في جهادنا، إنما هو أمر مباشر من الله لهم كعمل رسمي لهم يقومون به على الأرض، ولنا أن نعتمد عليه ونطلبه وننتظره برحاء صادق باعتباره افتقاداً من صلاح الله نحونا.



إلى هنا تمت تعليقات
الأب متى المسكين
على الرسائل السبع الأولى
للقديس أنطونيوس،
ويتبعها باقي الرسائل العشرين

الرسالة الثامنة

لأولاده الرهبان

يحثهم على الجهاد من أجل قبول نار
الروح القدس، ومن أجل اجتماعهم هناك.
ويذكرهم أيضاً بجهاداته، ويعرفهم بما
حصل له ليشجعهم بذلك. ويجب أن
تقرأ هذه الرسالة في عيد نياحته.

١ - أيها الأحباء في الرب، أكتب إليكم مثل الأبناء الأحباء عند
آبائهم. لأن الأبناء حسب الجسد، إذا ما تأملوا آباءهم ووافقوهم، فإن
الآباء يحبونهم من كل قلوبهم ويكرمونهم غاية الإكرام، أكثر من أبنائهم
غير المطيعين لهم. وإذا اقتبلوا شيئاً حسناً، أدخروه للأولاد الموافقين لهم
والمتشبهين بهم. فإذا كان الآباء الجسدانيون يصنعون هكذا، فكم بالأحرى
آباؤنا الروحانيون يريدون أن يعطوا الكرامات لأولادهم الموافقين لهم،
المتشبهين بهم.

أما أنتم، يا أحبائي في الرب، الذين أحبهم من كل قلبي، فإنني أشتهي أن
أكون عندكم كل حين وأنظركم وأبارك عليكم، لأن تعاهدكم لي وتشبهكم
بي ورجوعكم إلى الله؛ كل ذلك أنظره مستقيماً.

لقد حللتكم في قلبي (٢ كو ٧: ٣) بكل سبب. ومن الآن أطلب من إلهي

لأجلكم ليلاً ونهاراً لكي يعطيكم مواهبه التي أعطانيها، بنعمته فقط لا باستحقاق فيّ. فهذا هو الغنى العظيم الذي أعطانيه ربنا، وأنا أسأله أن يعطيه لكم أيضاً. وهذا غاية شهوتي وطلبي دائماً، الليل والنهار، أن تكونوا معي في الموضع الذي أنا فيه عند انتقالتي من هذا الجسد. لأن ربنا دائماً من صغري إلى هذا اليوم يسمع لي، وأنا عالم أنه برحمته يسمع لي في هذه أيضاً.

لقد كتبت لكم هذا، يا أولادي الأحباء، لأجل عظم محبة قلبي لكم؛ لأنكم بجهدكم للرب قد تشبهتم بي في كل شيء. واعلموا أن سيدنا المسيح لأجل محبته العظيمة هكذا صنع مع تلاميذه؛ إذ قال لهم: «إني لست أدعوكم الآن عبيداً بل إخوة وأبناء» (يو ١٥: ١٥). ولما صاروا له بنين، طلب إلى الأب من أجلهم قائلاً: «يا أبتي، أريد أن يكون هؤلاء حيث أكون أنا، لأنني أنا فيك وهم فيّ، لكي نكون بأجمعنا كاملين في الوحدة» (يو ١٧: ٢٤ و ٢١-٢٣). فانظروا وافهموا كيف طلب ربنا يسوع من أبيه لأجل تلاميذه، كونهم صاروا له بنين، أن يكونوا معه حيث يكون هو. وهكذا الآن هي طلبتي، يا أحبائي، أن نكون جميعنا في المكان الذي ليس فيه حزن ولا مرض ولا ظلمة ولا أرواح خبيثة؛ بل مملوء من كل السرور والنور والحياة الأبدية والأكاليل التي لا تضمحل وأشياء أخرى كائنة هناك، لا يستطيع لسان أن يصفها، لأنها دائمة إلى أبد الأبد.

يا أولادي الأحباء، صلّوا إلى الرب أن يسهّل طريقي إليكم دفعة أخرى، (لكي) أقيم عندكم زماناً ما. لأنني أعلم أن هذا لبنيانكم وفرحكم في الإيمان. فأنا أيضاً أفرح إذا أتيت إليكم لتفرحوا وتنموا في الإيمان، وأعرفكم بأسرار أخرى كثيرة لا يمكنني أن أكتبها إليكم في هذه الرسالة.

والآن فإن أمّكم سارة، التي هي الروح، تفرح بكم. هذه التي أكملت

حبليها وولدت روحاً إلهياً فيكم، وتشتهي أن تكملكم - كما طلبت منها عنكم - بذلك الروح الناري العظيم، هذا الذي قبلته أنا؛ فاقبلوه أنتم أيضاً. وإذا أردتم أن تقبلوه ويسكن فيكم، قدّموا أولاً أتعاب الجسد وتواضع القلب، وارفعوا أفكاركم إلى السماء في الليل والنهار. واطلبوا باستقامة قلب هذا الروح الناري، وحينئذ يُعطى لكم. لأنه هكذا حصل عليه إيلينا التشيبي وأليشع وجميع الأنبياء الآخرين.

ولا تفكروا في قلوبكم وتكونوا ذوي قلوبين، ولا تقولوا: مَنْ يقدر أن يقبل هذا؟ لا يا أولادي؛ لا تدعوا هذه الأفكار تأتي على قلوبكم، بل اطلبوا باستقامة قلب وأنتم تقبلونه.

٢ - وأنا أيضاً، أبوكم، أجتهد معكم وأطلب لأجلكم لكي تقبلوه، لأنني أعلم أنكم كاملون وقادرون على قبوله. لأن كل من يفلح ذاته بهذه الفلاحة فإن الروح يُعطى له من جيل إلى جيل وإلى الأبد. لكنني أعرف أناساً قبلوه، ولما لم يكملوا هذه الفلاحة لم يثبت فيهم.

أمّا أنتم، يا أحبائي، الذين أشتهي أن أنظركم لسبب استقامة عقولكم، أديموا الطلبة باجتهاد من كل قلوبكم فيعطى لكم؛ لأن ذلك الروح يسكن في القلوب المستقيمة.

وإذا قبلتموه، فإنه يكشف لكم الأسرار العلوية وأشياء أخرى لا أستطيع أن أعبر عنها في قرطاس بقلم ومداد. فهو يُبعد عنكم خوف البشر، والوحوش، والمجاعة وكل ما يشبه ذلك. ويكون لكم فرح سماوي ليلاً ونهاراً، وتكونون وأنتم في هذا الجسد كمن هو في الملكوت.

حينئذ لا تطلبون عن أنفسكم فقط، بل تطلبون عن الآخرين أيضاً. لأن

كل مَنْ قَبِلَ هذا الروح لا ينبغي له أن يطلب عن ذاته فقط لكن أيضاً عن الغير كما صنع موسى. فهو لما قَبِلَ هذا الروح صُلِّيَ من أجل الشعب قائلاً لله: «إن أهلكَ هؤلاء فامحُ اسمي من سفر الحياة» (خر ٣٢: ٣٢). وهكذا تكون طلبه كل مَنْ يبلغ إلى هذا الحد من القديسين وغيرهم، فإنني لا أقدر أن أصفهم بأسمائهم واحداً واحداً؛ أمّا أنتم فحكماة وتعرفونهم.

أمّا أنا فطلبتي الآن ليلاً ونهاراً أن تكون فيكم عظمة لذّة هذا الروح الذي قبله جميع الأطهار.

٣ - إنني، يا أولادي الأحباء، بعد أن كتبتُ هذه الرسالة، تحرّك فيّ روح الله أن أكتب لكم عن هذا الروح الناري في آخرها وعن المحبة الإلهية. وإذا أتيتُ إليكم بمعونة الرب عرّفْتُكم أشياء أخرى كثيرة عن هذا الروح، لكي تفتنوها جميعها.

وكما أهديتكم السلام في بداية الرسالة كذلك أيضاً أهديكُم السلام بمحبة الرب في آخرها، بهذا الروح الناري الذي قبلته أنا وإياكم بنعمة الرب.

وأطلب إليكم أن تتركوا مشيئتكم الحسّية وتلزموا الهدوء بكل نوع، لكي ما تسكن عندكم القوات العلوية، بموازة الروح القدس؛ وتعينكم على العمل بإرادة الثالوث الأقدس الآب والابن والروح القدس، الذي له السُّبح دائماً سرمدياً إلى أبد الآبدين. آمين.

الرسالة التاسعة

لأولاده الرهبان

يعرفهم مقدار فعل قوة الله في القديسين،
ويحثهم على اقتنائها لينالوا الملكوت الأبدي

١ - أيها الأحباء بالرب، إن الإنسان إذا كان يحب الله بكل القلب
وبكل الفكر وبكل النية وبكل القوة، فإنه يقتني خوف الله. والخوف يولد
البكاء، والبكاء يولد القوة. وبكمال هذه في النفس تثمر في كل الأشياء.

وإذا نظر الله إلى هذه الثمرات الحسنة في النفس، فإنه يقبلها إليه كرائحة
بخور مختار، ويفرح بها مع ملائكته في كل حين، ويعطيها سروراً، ويحفظها
في جميع طرقها لتصل إلى موضع راحتها. والشيطان لا يقوى عليها، لأنه
ينظر إلى الحارس العلوي محيطاً بها، ويخاف أن يقترب من ذلك الإنسان
بجملته، لأجل تلك القوة العظيمة.

فالآن، يا أحبائي بالرب، يا من تحبهم نفسي وتعلم أنهم يحبون الإله،
اقتنوا لكم هذه القوة لكي تخاف منكم الشياطين، وتخفّ عليكم الأتعاب
التي تمارسونها، وتحلو لكم الإلهيات؛ لأن حلاوة حب الله أحلى من الشهد.

ولأن كثيرين من الرهبان والعداري الذين في المجامع لمّا لم يذوقوا حلاوة
حب الله، ولم يقتنوا القوة الإلهية، وكانوا يظنون أنهم اقتنوها؛ ولكنهم لم
ينالوها لأنهم لم يتجروا فيها ولهذا لم يعطها الله لهم. فكل من تاجر فيها
فإنه ينالها بعبودية الله له. لأن الله ليس عنده محابة ولا يأخذ بالوجوه (أع

١٠:٣٤)؛ بل هو في كل الأجيال، جيلاً بعد جيل، يعطيها لمن يعمل بأعمالها.

٢ - والآن، يا أحبائي في المسيح، أنا أعلم أنكم تحبون الله. فاحرصوا أن يكون ذلك من كل قلوبكم، وبهذا وفرح قلبي، لكي تستطيعوا أن تقتنوا قوة الله، وتجزوا بقية حياتكم في سرور وفرح، وتخفّ عليكم أعمال الرب. لأن القوة التي تُعطى للإنسان هي التي تهديه إلى مواضع الراحة، وتحفظه حتى يجوز (أي يعبر) كل قوات الهواء (أف ٢: ٢)، كما قال المزمور: «مغبوط هو الرجل الذي يكمل شهوته منهم، حينئذ لا يخزون إذا كلّموا أعداءهم في الأبواب.» (مز ١٢٧: ٥)

اعلموا، يا أولادي الأحباء، أنه ما دام مع الإنسان نور الله وقوّته، فهو يرفض (أو يحتقر) شتائم أهل العالم وكراماتهم أيضاً؛ كما ويبغض جميع ما في هذا العالم ونياحات الجسد، ويظهر قلبه من الأفكار الشريرة، وعند ذلك يقدم صوماً ودموعاً الليل والنهار مع طلبات تقية، فيعطيه ربنا تلك القوة عينها.

فيا أولادي المباركين، اجتهدوا في اقتناء تلك القوة التي بها تعملون جميع أعمالكم براحة وخفة، وتجدون دالة عظيمة أمام الرب ويكمل لكم جميع طلباتكم.

واعلموا أنني كنت أريد أن أكتب لكم كلاماً كثيراً لأجل محبتي لكم، لكنني اقتصرت على هذا اليسير، وأطلب أن يجعله ربنا يسوع المسيح لكم خلاصاً وفرحاً، الذي ينبغي له المجد والإكرام من كل الناطقين مع أبيه الصالح وروحه القدس، إلى أبد الأبدن. آمين.

الرسالة العاشرة

لأولاده الرهبان

عن مجد الباطل وقاتلاته،

وكيف يجاهدون ليخلصوا منه

١ - يا أولادي المباركين، أكتب إليكم هذه الرسالة لكي ما تعرفوا أن محبي الله وطالبيه بكل قلوبهم، يسمع لهم ويعطيهم كل ما يطلبونه.

أما الذين لا يأتون إليه بكل قلوبهم، بل يكونون ذوي قلوبين، وجميع ما يصنعونه ظاهراً إنما هو لكي ينالوا المجد من الناس (مت ٦: ٢)، فهؤلاء لا يستمع الله لهم في شيء ما من طلباتهم؛ بل يغضب عليهم بالأكثر لأنهم يعملون أعمالهم بالرياء. ولهذا يتم عليهم قول المزمور القائل: «إن الله يبدد عظام المرائين.» (مز ٥٢: ٦)

٢ - لأن الله، جلّ ذكره، يغضب على أفعالهم، ولا يُسرّ بطلباتهم ويقاومهم بزيادة، لأنهم يعملون أعمالهم بغير أمانة، كونهم يعملونها لمראה الناس. ومن أجل ذلك لن تفعل فيهم قوة الله، لأنهم ضعفاء القلوب في ما يتدبّرون به من الأعمال. لذلك لم يعرفوا الخلاوة الإلهية ولا خفتها ولا فرحها، بل ثقلت أعمالهم على نفوسهم كالحمل الثقيل.

وكثيرون من جنسكم هم هكذا. فلأنهم لم يقتنوا هذه القوة التي تعطي للنفس لذة، وتملاؤها فرحاً وسروراً يوماً فيوماً، وتشعل فيها حرارة إلهية، خدعهم هذا الروح الخبيث وجعلهم يعملون أعمالهم لمראה الناس.

٣ - أما أنتم، يا أحبائي المحبوبين لقلبي، الذين قدمتم أثمار أتعابكم أمام الرب، فاجتهدوا أن تبتعدوا من روح المجد الباطل، وتقووا عليه دائماً، لكي يقبل ربنا أثماركم التي قدمتموها أمامه، وتنالوا منه القوة التي تُعطى لمختاربه.

إن قلبي متعزّ بسببكم، يا أحبائي، لأنني أعلم أنكم لا توافقون روح المجد الباطل بل تضادونه كل حين؛ ولهذا فثمرتكم طاهرة وحيّة. فداوموا على مضادة ذلك الروح الرديء. لأنه عندما يتبدى الإنسان بالأعمال البارة والاجتهاد الصالح، يأتي إليه (روح المجد الباطل) ويشاركه ويجعله يتأخر عن ذلك، حتى لا يدعه يصنع شيئاً من البر؛ لأنه روح شرير يضاد كل من يريد أن يكون مؤمناً (أميناً).

كثيرون يفتخرون الناس بهم لأنهم أمناء مسرعون في تقديم الرحمة (أي الإحسان) للمحتاجين؛ وهؤلاء أيضاً يضادهم ذلك الروح. وقوم آخرون يشاركونهم في أعمالهم ويؤلف أثمارهم ويعطّل تقدّماتهم، وذلك لأنهم يصنعون فضائلهم ورحمتهم ممتزجة بمجد الناس. وهؤلاء يظن الناس أن لهم ثمرة وليس لهم، لأنهم كالجميزة الرديئة التي يظن من يراها من بعيد أنها مملوءة من الثمر الحلو، وعندما يقترب إليها لا يجد فيها غير الثمر الفاسد، وليس فيه من الحلاوة شيء. فهكذا هم كل الذين يقبلون المجد من الناس، فإن الناس يظنون أن لهم أثماراً كثيرة صالحة أمام الرب، في حين أنه ليس فيهم شيء من الثمر بالجملة. بل قد تركهم جافين لأنه لم يجد فيهم ثمرة صالحة، ومنعهم من حلاوة لاهوته العظيمة.

٤ - أما أنتم، يا أولادي المجاهدين، فاجتهدوا أن تقفوا أمام روح المجد الباطل وتضادوه وتقووا عليه، فتأتي قوة الله وتعينكم وتثبت عندكم

وتعطيكُم نشاطاً وحرارة كل حين. وأنا أطلب عنكم أيضاً أن تدوم هذه الحرارة فيكم سرمداً، لأنها حقيقة وليس شيء أفضل منها.

فإن نظر أحد منكم أن هذه الحرارة ليست فيه، فليطلبها باجتهاد وهي تأتي إليه. لأن هذه الحرارة هي تشبه النار التي إذا قصد الناس أن يسلقوا شيئاً من الخضِر، فإنهم ينفخون فيها حتى تشتعل. فإذا اشتعلت فإن الماء يكتسب بجمراتها طبع النار ويفور طالعاً ومُحرِقاً. فهكذا يا إخوتي، إذا رأيتم نفوسكم قد بردت بالغفلة والتواني، فاجتهدوا في إقامتها ونوحوا عليها، فلن تتأخر تلك الحرارة عن أن تأتي وتتحد بها (أي بالنفس) وتكسيبها طبعها فتغلي وتفور بالأعمال الصالحة.

لأن داود لما رأى نفسه قد ثقلت وبردت قال هكذا: «طرحْتُ نفسي أمامك، وذكرت الأيام السالفة وتلوتُ في أعمال يديك» (مز ١٤٢: ٥)؛ وأيضاً: «بسطتُ إليك يدي، وصارت نفسي كالأرض العطشانة أمامك» (مز ١٠٧: ٢). فافهموا، يا أحبائي، ما فعله داود؛ أنه لما ثقل قلبه اجتهد إلى أن ألهبت الحرارة قلبه مرة أخرى حتى قال: «قلبي مستعد يا الله، قلبي مستعد» (مز ١٠٧: ٢)، وقبل الخفّة في خدمته الليلية والنهارية.

فاعملوا أنتم أيضاً هكذا، لكي ما تكونوا مجتمعين باستعداد قلب بضياء اللاهوتية وحرارتها، ولكي يكشف الله لكم الأسرار العظيمة التي لا توصف. وأنا أسأله أن يحفظ أجسادكم وأنفسكم وأرواحكم صحيحة إلى أن ينقلكم إلى مسكن رحمته، الموضع الذي وصل إليه آباؤنا القديسون.

كونوا فرحين بالرب الذي له المجد إلى أبد الآبدين. آمين.

الرسالة الحادية عشرة

لأولاده الرهبان

على الإفراز. يَحْتُمُّ على اقتنائه لأنه هو الكمال

١ - اعلّموا، يا أولادي المباركين، إنني أكتب إليكم كأولاد أحياء مستحقين البركة وميراث الملكوت.

فيجب عليكم، إذ قد صرتم هكذا، أن تذكروا (في صلواتكم) ليساً ونهاراً، الذين يريدون أن يصيروا أولاد الملكوت، لكي يحفظهم الله من كل الشرور، ولينظروا (بإفراز) كل الأشياء، ويتأملوا الصالحات وينالوا الخيرات المعدّة للأبرار.

إنكم، يا أولادي، قد صرتم لي أحياء وأبناء الملكوت؛ ولهذا فأنا أطلب عنكم بلا فتور لكيما يعطيكم الله أن تنظروا وتفهموا جميع الأشياء حتى تميزوا بين الخير والشر. لأن بولس الرسول كتب يقول: «إن الطعام القوي هو للكاملين الذين درّبوا حواسهم وعزائمهم بكثرة الفحص عن الخير والشر» (عب ٥: ١٤)، وصاروا بنين للملكوت، وأحصوا في البنوة الإلهية؛ ولأجل هذا يعطيهم الله هذا النظر والإفراز في سائر أعمالهم لكيلا يُضِلَّهُم البشر ولا الشياطين. واعلموا أن العدو يُضاد المؤمنين بحجة الخير ويُضِلُّ كثيرين لكونهم لم يُعطوا هذا النظر وهذا الإفراز.

والطوباني بولس، لما عرف هذا الغنى الذي يصير مع المؤمنين والذي ليس لعظم قدره حدّ، كتب لأهل أفسس، الذين صاروا له أولاداً وأبناء

للملكوت لأجل عِظَم محبته فيهم، يقول لهم: «أيها المؤمنون الأطهار الذين بأفسس ... إني منذ سمعت بإيمانكم بربنا يسوع المسيح ومودّتكم لجميع القديسين، لستُ أفرّ عن الشكر عنكم والذكر لكم في صلواتي، كي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد، روح الحكمة والإعلان لتستنير عيون قلوبكم فتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غِنَى مجد ميراثه في القديسين» (أف ١: ١ و ١٥-١٨). وقال أيضاً: «إننى أجتو على ركبتيّ للآب الذي منه تُسمّى كل أبوة في السماء وعلى الأرض، أن يعطيكم كغِنَى مجده حتى يصحّ يقينكم (أي إيمانكم) ويقوّى بما يؤيّدكم فيه بروحه، ليحلّ المسيح في إنسانكم الباطن بالإيمان، وفي قلوبكم بالمودّة، إذ يكون أصلكم وأساسكم وثيقاً، كي تستطيعوا أن تدركوا مع جميع الأطهار ما هو العرض والطول والارتفاع والعمق.» (أف ٣: ١٤-١٨)

فانظروا - يا أولادي الأحباء - إلى هذا الرسول العظيم؛ كيف أنه لما عرف عِظَم هذا الغِنَى الذي لم يعرفه بعد أولئك الذين أحصوا له أولاداً بدخولهم في الإيمان، طلب عنهم أن ينالوا معرفة عِظَم هذا الغِنَى الذي قد عرفه، وهو النظر الحقيقي الذي هو الإفراز، الذي ليس شيء أعظم منه في الإيمان المسيحي. وقد طلب ذلك لأجل عِظَم محبته لهم، وعِلْمِهِ أنهم إذا نالوه لا يكون لهم بعد تعب في أى شيء، ولا يجزعون بعد من خوف، بل يكون فرح ربنا معزّياً لهم ليلاً ونهاراً، وتصير أعماله حلوة عندهم على الدوام في سائر الأوقات، ويعطيهم الله لأجل ذلك إعلانات الأسرار العظيمة التي للدهر الآتي، هذه التي لا نستطيع أن نصفها باللسان اللحمي.

٢ - فالآن، أيها الأحباء بالرب، الذين قد صرتم لي أولاداً، اطلبوا ليلاً ونهاراً، بدموع غزيرة، هذا النظر والإفراز؛ لكي يكون لكم الخير الدائم من

عند إلهنا، ويزداد بهاؤكم في كل شيء ويعطيكم الله أشياء أخرى كثيرة ما عرقتموها قط.

وأنا، أبوكم، أطلب أيضاً لأجلكم أن تبلغوا هذا المقدار الذي لنا. لأن كثيرين من الرهبان والعذارى الذين في الجامع لم يبلغوا إلى هذا المقدار. وإذا أردتم، يا أولادي، أن تبلغوا إلى هذا المقدار، الذي هو الكمال، فابتعدوا من كل الذين يحملون هذا الاسم الذي للرهبنة والبتولية، ولا يوجد فيهم هذا النظر والإفراز. لأنكم إن خالطتموهم، لا يدعونكم تتقدمون، بل يطفئون الحرارة منكم، لأن ليس فيهم حرارة بل برودة، وهم يسيرون بحسب إرادتهم. فإذا أتوا إليكم وتكلموا معكم بكلام هذا الدهر، وبما يوافق إرادتهم، فلا توافقوهم. لأنه مكتوب في الرسول بولس: «لا تطفئوا الروح، ولا تحتقروا النبوات» (١ تس ٥: ١٩-٢٠). واعلموا، يا أولادي، أن الروح لا ينطفئ منا إلا بالكلام الباطل والمزاح وأعمال أخرى كثيرة لا يمكنني أن أكتبها واحدة فواحدة. فإذا ما نظرت هؤلاء الناس، فلا تحتقروهم؛ لكن اصنعوا معهم الخير ولا تخالطوهم لئلا يجذبوكم إلى خلف. وسلام ربنا يحل على أرواحكم الوديدة، يا أولادي الأحباء. الذي له المجد والإكرام من كل الخلائق إلى أبد الأبد. آمين.

الرسالة الثانية عشرة

لأولاده الرهبان

فى المحبة. وأنه يشتهي أن يراهم

ويتعزّوا جميعاً بما يُعرفه لهم شفاهاً

١ - اعلّموا، يا أحبائي بالرب، أن محبة الرب هي على الدوام تتعاهد ضمائرنا وتساعد كل الذين أعدّوا أفكار قلوبهم لتذكّار «كنيسة الأطهار» (مز ١٤٩: ١) ليلاً ونهاراً، وهي غير منعطفة نحو ما يخالف ذلك. وكما أن هؤلاء يذكّرونهم روح الله دائماً ويطلب عنهم بزيادة، لأنهم صاروا له أولاداً إذ أنه ولداهم بالله، هكذا أنتم الذين أحصيتهم لي بنين وجعلتكم أبناء لله، لا أفتر عن تذكاري لكم في صلواتي ليلاً ونهاراً؛ لكي يكون إيمانكم ثابتاً، وتزدادوا في عمل الفضائل، ويثبت ربنا نظركم وتمييزكم، ويعطيكم قوة عظيمة أكثر مما هو لكم.

وهذه هي طلبتي دائماً لأجلكم، إذ قد ولدتكم في المسيح، وصرت لي بنين. وهكذا تيموثاوس، لما ولده بولس الرسول بالله وصار له ابناً، كتب له هكذا قائلاً: «إني أذكرك في صلواتي ليلاً ونهاراً، وأشتاق إلى رؤيتك؛ وأذكر دموعك لكي أمتلئ سروراً بما أتذكّره من إيمانك الصحيح.» (٢ تي ١: ٣-٥)

٢ - فانظروا، يا أولادي الأحياء، هذا الرسول، كيف صار له تيموثاوس ابناً وولده بالله، فكان اهتمامه من أجله بهذه الثلاثة أشياء: أن

يذكره ليلاً ونهاراً، ويصلّي من أجله، ويشتهي أن يراه. هكذا أنا أيضاً، يا أحبائي، الذين من أجل استقامة قلوبكم يحبكم قلبي، أفعل كما فعل بولس لتيموثاوس هذه الثلاثة أشياء بعينها: أن أذكركم، وأصلّي من أجلكم، وأشتهي أن أراكم.

وأنا أعمل هذا لتذكركم وأتعبكم وتهلككم وحزن قلوبكم وكثرة صبركم وهدوئكم؛ لأنكم تعملون هذه الأشياء بقلب قوي وبحكمة. لأن كل من يعمل أعمال الله فيروح الحكمة يعملها. فهكذا قال بولس الرسول: «إن الله لم يعطنا روح الخوف، بل روح الحكمة وقوة المحبة» (١ تي ١: ٧). وربنا يطلب من كل منا أن تكون أعماله بهذه الحكمة.

والآن، يا أولادي الأحباء، أنا أطلب من الرب أن يسهّل طريقي لآتي إليكم مرة أخرى. لأنني أعلم أنكم تشتهون أن تروني، كما أنا بالأكثر أشتهي أن أراكم. واعلموا هذا، أنه ليس على الأرض شيء يُعادل محبة الآباء للأولاد والأولاد للآباء؛ فهم في كل وقت يشتهون أن ينظروا بعضهم بعضاً. فإذا كان الآباء والأبناء الجسدانيون لهم هذه المحبة، فكم بالأحرى الآباء الروحانيون وأولادهم بالله! فإنهم يشتهون، بخوف الله ومحبتة، أن ينظروا بعضهم بعضاً. ذلك لأن الآباء بالله أعظم من الآباء بالجسد، كما أن حب الآباء للأبناء أعظم من حب الأبناء للآباء. لذلك قال الرسول الإلهي بولس: «إن كان لكم في محبة يسيرة، فإن محبتي لكم عظيمة» (٢ كو ١٢: ١٥). فهكذا، يا أولادي الأحباء، أنا أبوكم ومحبتي لكم أكثر من محبتكم لي. وبما أنكم قد صرتم لي بنين، فلنصلّ جميعنا معاً لكي يعطينا ربنا أن يرى بعضنا بعضاً مرة أخرى. فأنا أعلم أن باجتماعي معكم يحصل لكم سرور وفرح، كما قال بولس الرسول: «إنني تائق جداً أن أراكم وأمنحكم

عطية الروح ليصحَّ بها يقينكم ونتعزَّى جميعاً بإيماني وإيمانكم» (رو ١١: ١٢). لأننا إذا اجتمعنا، أعلمتكم بأشياء أخرى لا يمكنني أن أكتبها إليكم في الرسائل، ليكون ذلك لكم خلاصاً بالرب يسوع المسيح الذي له المجد والوقار والتسبيح مع أبيه وروح قدسه إلى أبد الآبدين. آمين.

الرسالة الثالثة عشرة

لأولاده الرهبان

يُحَثُّهم على اقتناء الفرحة الذي يناله المجاهدون،
وكيف سيدينون يوم الدين أهل جيلهم المتوانين.

١ - تعلمون، يا أحبائي بالرب، أن كل خليفة ناطقة، رجلاً كان أو امرأة، فآلة (أي خاصية أو حركة) المحبة كائنة فيهم وتحرك لكلا الجهتين: لقبول الإلهيات أو الجسدانيات (قارن: رو ٨: ٥). ولأجل أن اللاهوتية هي فيكم، فأنا أحبكم بكل قلبي وروحي، لاقتنائكم الله فيكم وقد صرتم عندي في محل عظيم.

وأنا دائماً أطلب من إلهي لأجلكم، أن تنمو في قلوبكم الإلهيات بمحبته، وأن يكشف لكم عظم سرائره التي لا يمكنني أن أعبر عنها بلساني؛ لأنها في غاية الرفعة والعظمة، وليست مثل التي لهذا الدهر. وهي لا تُكشَفُ للأنفس غير الطاهرة، بل للذين طهَّروا قلوبهم من كل النجاسات ومن أعمال هذا الدهر الزائل. هؤلاء هم الذين أبغضوا العالم حتى نفوسهم، وحملوا الصليب، وتبعوا الرب في كل شيء، وعملوا بإرادته.

فهؤلاء حلَّت فيهم اللاهوتية، وأعطتهم حلاوة وفرحاً با الله. وهذا الفرحة يُغني النفوس ويجعلها تنمو بزيادة. وكما أن الأشجار إن لم تشرب من طبيعة الماء لا يمكنها أن تنمو؛ فهكذا النفس إذا لم تقبل الفرحة السمائي لا يمكنها أن تنمو وتصعد إلى العلاء. أما النفوس التي قبلت الفرحة السمائي فهي التي

تستطيع أن تنمو إلى العلاء؛ لأنها قد حفظت ما قلناه سابقاً، وانكشفت لها أسرار ملكوت السموات وهي في هذا الجسد؛ ووجدت الدالة أمام الله في كل شيء، وكَمَّلَ لها جميع طلباتها.

٢ - والآن، يا أحبائي المكرَّمين، هذه هي طلبي دائماً: أن تبلغوا إلى هذا الحد، وتعرفوا وتعلموا غنى ملكوت الله الذي لا يُقاس ولا نهاية له. وأنا أعلم أن هذا الغنى لا تستحقه إلا أنفس قلائل من الرهبان والعداري الذين في الجامع، لكونهم بلغوا إلى حدِّ الكمال، وأعدت لهم كراسي ليجلسوا عليها يوم الدينونة للحكم. وأنا عارف بقوم في جيلنا هذا قد بلغوا إلى هذا الحد من بقوة الله. ولم يخلُ قط جيل من الأجيال ممن بلغوا إلى هذا الحد، ولا الأجيال الآتية أيضاً تخلو من ذلك؛ وليس من الرجال فقط بل ومن النساء أيضاً. فإذا جلسوا على الكراسي، كما تقدم القول، فكل منهم يدين أهل جيله، لكونهم جاهدوا حتى غلبوا وكمَلُوا؛ والذين كملوا هم الذين يدينون المسكونة.

وهذا هو ما أطلبه لأجلكم ليلاً ونهاراً، أن تبلغوا إلى هذا المقدار لتدينوا أهل جيلكم. والذي يدفعني إلى ذلك هو كثرة محبي العظيمة لكم، التي لا أقدر أن أشرحها بوصف، ولا أنتم أيضاً. لأن الرسول بولس يقول للذين أحضوا له بنين: «إنني لست أريد أن أعطيكم الإنجيل (أي البشارة) فقط بل أنفسنا أيضاً، لأنكم صرتم لنا أعباء في الرب» (١ تس ٢: ٨). فهذا هو ما أحمله في قلبي لكم، يا أحبائي بالرب.

هذا وقد أرسلتُ لكم عوضاً عني ابني الحبيب إلى أن يسهِّل الله حضوري عندكم بالجسد، وأضيف لكم فرحاً أكثر من فرحكم. لأن الرب إذا رأى الأب يحب بنيه، فإنه يكون هو بذاته فرحاً لجميعهم، ويعطيهم قوة

عظيمة وسلاماً في موضع الوحدة الذي هو الملكوت الأبدي، الذي لكم
أن تراثوه بنعمة ربنا يسوع المسيح الذي له السُّبح والمجد والعز إلى الأبد.
آمين.

الرسالة الرابعة عشرة

لأولاده الرهبان

يُحَثُّهم على تكميل الطاعة

لتحلَّ عليهم بركات آبائهم

١ - يا أحبائي في الرب، الذين أعددتُم ذواتكم لملكوت السموات وطلبتم الله لكي يكون لكم كما هو لأبيكم^(٤). لقد طلبتم أن تمضوا إلى الموضع الذي يمضي إليه أبوكم، والبركة التي تحلُّ عليه تحلُّ عليكم والمجد الذي يقبله تقبلونه، لأنكم قد صرتم له بنين ببنوة الحق والبركة والطاعة. لأن الأولاد الطائعين هم الذين يرثون غنى آبائهم، وبرَّهم وبركتهم. ولأن الطلبات (أي الصلوات) التي يقدمها الأبناء أمام الله تشبه طلبات آبائهم، فبها يرثون فضائلهم وبرَّهم وبركاتهم. هكذا كانت صلوات يعقوب شبيهة بصلوات آبائه في كل شيء، ولذلك حلَّت عليه كل بركات آبائه، وأُهلَّ لنظر السَّلم الروحاني والملائكة صاعدة ونازلة عليه. فهو قبل أن ينال البركة من آبائه لم ينظر ولا ملاكاً واحداً، ولما نال بركتهم رأى الملائكة وبُورِكَ منهم.

هكذا الأبناء الحقيقيون عَلموا أنهم لا يستطيعون أن يروا شيئاً من القوات، إن لم ينالوا البركة من آبائهم. ولهذا بذلوا الاجتهاد في الطاعة وطلب البركة من آبائهم، لكي ببركاتهم يستحقون أن ينظروا الأجناد

(٤) القديس أنطونيوس يقصد ذاته.

والملائكة، وينظرون يشتمون بلا اضطراب في جميع الأشياء. وهكذا الطوباني بولس لما نظر ذلك ثبت وتقوى وصرخ قائلاً: «ماذا سيفصلي عن حب المسيح؟ أشدّة أم حبس أم طرد أم جوع أم عُرى أم مقاومة أم سيف؟ ... لا الموت ولا الحياة ولا الملائكة ولا الرؤساء ولا السلاطين، ولا هذه الأشياء القائمة ولا المزمعة ولا القوات ولا العلو ولا العمق ولا الخليفة الأخرى السفلية تقدر أن تفصلي عن حب الله برنا يسوع المسيح» (رو ٨: ٣٥ و ٣٨-٣٩). فانظروا الآن، يا أحبائي، أن كل الذين اجتهدوا حتى صاروا بغير اضطراب، لا يهتمهم شيء البتة. وهكذا أريد أن تكونوا، ولي اشتياق أن أراكم لما لكم من كثرة المحبة لله.

٢ - وأطلب إليه، الليل والنهار، أن يحلّ بركات آبائنا عليكم، وبركتي أنا المسكين أيضاً، لكي تسكن فيكم القوات العقلية وتحوزوا بقية أيام حياتكم بكل سرور. لأن كل من لم يبلغ إلى هذا المقدار فإنه لا يجد سرور السموات.

واعلموا، يا أولادي الأحباء، أن كل الوصايا ليست ثقيلة ولا متعبة؛ بل نور حقيقي وسرور أبدي لمن كملّ الطاعة.

وأنا أقول لكم إنني لم أفتر عن الطلب لأجلكم، لكي تكونوا معي حيث أكون أنا؛ لأنكم صرتم لي أبناء وقد سمعتم لي في كل شيء. وربنا يسوع المسيح، عندما رأى تلاميذه يسمعون منه، طلب من أبيه قائلاً: «يا أبت، الموضع الذي أكون أنا فيه أريد أن يكون هؤلاء معي، لأنهم سمعوا كلامي وأنا أسلم ذاتي عنهم. أيها الآب أنت فيّ وأنا فيك، وهؤلاء فينا؛ ليكونوا في الوحدة كما نحن» (يو ١٧: ٢٤ و ١٩ و ٢٢-٢٣). فانظروا، يا أولادي الأحباء، إلى طلبة ربنا لأجل تلاميذه أن يكونوا حيث يكون هو،

وطلبته أيضاً من الآب أن يحفظهم من الشرير إلى أن يبلغوا إلى مواضع الراحة، لأنهم صاروا له أحباء. واعلموا أن هذه هي طلبي أيضاً إلى الله من أجلكم؛ أن يحرصكم من الشرير إلى أن تبلغوا إلى مواضع الراحة، وأن يعطيكم بركة آبائنا؛ لأن هذه البركات إذا حلت عليكم تزيدكم نعمة عظيمة.

لأن يعقوب لما مضى إلى ما بين النهرين، بعد قبوله البركة، نظر الملائكة وباركه الله لأجل طاعته لآبائه ونوال البركة منهم. فلما نظر الملائكة وجهاً لوجه، تمسك بأحدهم حتى قبل منه البركة بزيادة، وبها بارك بنيه. وهكذا، أنا المسكين، اطلب من إلهي الذي أخدمه من صغري إلى الآن، أن يبارككم ويزيدكم من البركة، لكي ما تصيروا بأرواحكم وأجسادكم مثل أبينا يعقوب الممتلئ بركة. واعلموا أن آبانا يعقوب، لما كان بين النهرين، ذكر أبويه وأخذ في العودة إلى أرضه. وفزع من أخيه فقدّم له قبل أن يلقاه أربع تقدمات. وليس لأن أخاه كان محتاجاً لذلك إذ أنه كان غنياً جداً؛ لكنه صنع هذا لكي يحلّ العداوة التي بينهما وتحلّ عليه بركة آبائه، لأنه كان يعلم قوة بركة آبائه، كما هو مكتوب: «إن بركة الآباء تحلّ على بيت الأولاد.» (ابن سيراخ ٩: ٣)

فمن الآن، يا أحبائي بالرب، أنه لفرح لي أن تذكروا مسكنتي، وتذكروا أيضاً آباءكم الجسدانيين، لكي تحلّ عليكم بركاتهم في كل حين. اعلموا هذا! وسلام الرب يحفظ قلوبكم ونعمته تعضدكم. له السُّبح من جميع الناطقين إلى الأبد. آمين.

الرسالة الخامسة عشرة

لأولاده الرهبان

يعرفهم أن الصوم وبقية الفضائل هي ثمار حياة وروحية.
وأن اعبد الباطل وراحة الجسد تُفسدها وتجعلها مائتة
ورديئة. ويحثهم على الهروب من هذه واستعمال تلك.

١ - قبل كل شيء، يا أولادي الأحباء المباركين، أنا أسأل الله أن يعطيكم غير المنظورات، لا هذه المنظورات: «لأن هذه المنظورات وقتية فانية، وتلك غير المنظورة أبديّة باقية» (١ كو ٤: ١٨). وطلبي هذه عنكم هي لأنني نظرتُ ثماركم حياة روحية، وقد صرتم ميراثاً ونصيباً لله الكلمة؛ ولذلك فرح قلبي جداً، لأنني أعلم أن الله يفرح بمن تكون ثمارهم حياة روحية ويجعلهم ميراثاً له ونصيباً.

إن كل الذين ثمارهم ميتة لا يُعدّون نصيباً لله، بل هو يلوهم بالأكثر كما قال للنبي أن يعرفهم ذلك بقوله له: «اصرخ بقوة ولا تشفق، وارفغ صوتك مثل البوق، وعرف شعبي بخطاياهم، وبيت يعقوب بآثامهم؛ لأنهم ليسوا بعيدين وسيطلبونني في الأيام الأخيرة. وهم بغضبٍ قالوا: لماذا صُمنّا ولم تعلم؟ وواضعنا نفوسنا (أي اتضعنا) ولم تنظر؟» (إش ٥٨: ١-٣). فأجاب وقال للذين قالوا هذا: «لأنكم في أيام صومكم توجدون صانعي إرادة قلوبكم الشريرة، والذين هم تحت سلطانكم تنقسون عليهم وتقرعون (أي تضربون على) رؤوسهم؛ وصومكم هو للقضاء والحروب. وإذا أنتم

هكذا فأنا لا أقبل صومكم، لأن هذا الصوم ليس هو الذي اخترته، يقول الرب». وقال أيضاً: «لو لويت عنقك مثل الحلقة، ولبست مسحاً وبسطت (أي افترشت) رماداً فليس هذا الصوم صوماً مقبولاً.» (إش ٥٨: ٣-٥)

فاعلموا، يا أولادي الأحياء، أن هذه كلها ثمار مائتة، وأن كل الذين يصنعونها لا يسمع الله لهم عند تضرعهم، بل يلومهم بالأكثر.

والإنجيل المقدس قد بين لنا هذا أيضاً بقوله: «إذا كان النور الذي فيك ظلاماً، فالظلام كم يكون!» (مت ٦: ٢٣). والنيي أيضاً في موضع آخر يقول: «إن جميع برّكم عندي كخرقة الحائض.» (إش ٦٤: ٥)

٢ - فإذا قد عرفتم، يا أولادي الأحياء، هذه الثمار المائتة، فلا تهتموا بشيء منها، لئلا تفسد أثماركم الحية الروحية. وأنا أتضرع إلى الله من أحلكم أن يحفظ ثماركم من الفساد، ويجعلها تنمو وتزيد نعمتكم وفرحكم ومحبتكم للإخوة وللمساكين؛ وأن يكمل فضائلكم الحسنة وثماركم الحقيقية إلى أن تخرجوا من هذا المسكن وتجتمعوا بعضكم ببعض في ذلك الموضع الذي ليس فيه مرض ولا ضيق ولا شر، بل فرح وسرور ومجد وأكالييل وتيجان وثمار طاهرة وكنيسة أطهار، والميراث الذي لا يزول، وسائر الخيرات «التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب بشر.» (١ كو ٩: ٢)

٣ - وأريدكم، يا أولادي الأحياء المباركين، أن تعضدوا طلبتي هذه ومحبيتي العظيمة لكم، وذلك بمداومتكم على أعمال الرب بقلوب ثابتة.

وأنا أطلب إليه أيضاً أن يحفظكم في هذا الزمن السوء، وأن تكونوا معافين بالجسد والنفس والروح، وأن يعطيكم معرفة في كل الأمور لكي

تخلصوا من طغيان هذا الدهر، ويكون لكم سلام وفرح وخلاص بالرب من
هذه الثمار المائة الرديئة التي أصلها جميعها المجد الباطل وراحة الجسد.

وسلام ربنا يسوع المسيح يحلُّ على جميعكم، هذا الذي ينبغي له المجد
والعز والإكرام والتسبيح والوقار مع أبيه وروح قدسه، من الآن وإلى كل
أوان وإلى الأبد. آمين.

الرسالة السادسة عشرة

لأولاده الرهبان

عن المسكنة والاتضاع، بشهادات من العتيقة والحديثة
ويؤكد عليهم أن يقتنوا ذلك ليفوزوا بالملكوت.

١ - لتتكلّم، يا أولادي الأحباء، بيسير من أخبار الآباء القديسين
الأطهار، الذين رفعهم الله لأجل تواضعهم ومسكنتهم الأولى، وأعطاهم
المجد والغنى ههنا، لكونهم تواضعوا من كل قلوبهم قبل تعظيم الله لهم.

ونخبركم أولاً عن أب الآباء إبراهيم، أن الله رفعه من المسكنة إلى الغنى
ومن الإهانة إلى المجد؛ وكل هذا كان جسدياً. ولم ينسَ إبراهيم مسكنته
الأولى، بل عاش ساكناً في مظال، وكذلك إسحق ويعقوب.

وكان لإبراهيم الاستطاعة أن يبني لنفسه القصور في كل مكان؛ إذ كان
قد صار له من الغنى الكثير من الذهب والفضة والعييد والإماء والمواشي.
ولكنه إذ كان يعلم أن قلبه إذا داوم تذكّار المسكنة، فلن ينسى كثرة
الخيرات التي صنعها الله معه، فلم يفعل ذلك (أي لم يسكن القصور) بل
سكن المظال. ولأجل ذلك ظهر الله له ومعه ملاكان وهو جالس عند
شجرة ممرا. واهتم بربنا وملائكته فلم يأمر أحداً من عبيده أن يصنع ما اهتم
هو بعمله، لئلا ينسى النعمة التي أعطاهها له بعد تواضعه ومسكنته؛ بل هو
بنفسه، بشيخوخته الحسنة التي كانت تناهز المائة سنة، مضى إلى قطعانه،
وأتى بعجل جيّد وذبحه. وأمر سارة زوجته نفسها أن تعجن، ثلاثة أكيال

سميذاً، وكان كل عبيدهما وإمائهما قياماً حولهما. ولما قدّم لهم إبراهيم ليأكلوا، كان واقفاً بين أياديهم كالمسكين الذي ليس له عبيد. ولأجل هذه المسكنة التي أظهرها أمام الرب، أظهر الرب له نفسه، وكَمَّلَ له كل إرادته، وقال له في ذلك اليوم: «إنه في مثل هذا اليوم من العام المقبل سيكون لسارة ولد» (تك ١٨: ١٠). وكان كذلك ورزقا إسحق.

٢ - وإسحق هذا كان غنياً جداً ولكنه تمسكن بقلبه، حتى أن الفلسطينيين كانوا يظلمونه كواحد مسكين. أما هو فلم يكن ينتقم منهم (تك ٢٦: ٢٣-٢٢)، فكان غناه يزداد أكثر منهم.

وهكذا يعقوب، لما أراد أن يذهب إلى بين النهرين، قبل نياحة أبيه إسحق وبعد أن أخذ بركته، ترك عنه كثرة الغنى وكان يمشي بمسكنة، وليس معه سوى عصاه وزاد لكفاه في الطريق؛ وكان إذا رقد يضع تحت رأسه حجراً. ولأجل هذا استغنى بالأكثر في بيت خاله لابان. ولما أراد أن يرجع إلى بيت أبيه، لم ينس المسكنة بسبب ما صار له من كثرة الغنى، لأنه كان دائماً يسير بالمسكنة. بل إنه أظهرها أمام الرب قائلاً: «إننى عبرت الأردن بعصاي، والآن صرتُ جيشين» (تك ٣٢: ١٠). وانظروا أيضاً كيف أنه لم ينس المسكنة حتى وقت نياحته؛ فلما سجد على طرف عصاه، وكان أولاده حوله، أوصاهم قائلاً: «لا تنسوا مسكنتكم الأولى، يا أولادي، بسبب ما صار لكم من هذا الغنى». وكانت عصاه بيده دائماً، في كل وقت، حتى لا يتكبر قلبه بكثرة غناه عندما ينظر إليها، ويذكر العبودية التي أكملها في بيت خاله لابان، لأنها كانت بيده عندما كان يرعى قطعان غنمه.

وهكذا يوسف لما ملك على مصر، لم ينس مذلته ولم يخز أن يظهر ذلك

لفرعون، بقوله لإخوته: «إذا تقصّى منكم فرعون، فقولوا له: إن عبيدك رعاة غنم» (تك ٤٦: ٣٣-٣٤). وقد فعل ذلك حتى لا يكون له فخر عند فرعون. فانظروا كيف أن ملكه وغاناه لم يُنسياه مذلتة ومسكنته.

٣ - وهكذا موسى، كبير الأنبياء، لما صار ابناً لابنة فرعون ومُلك على خزائن مصر جميعها (عب ١١: ٢٦) ذكر إخوته المولودين من إبراهيم الذي رفعه الله من تواضعه ومسكنته، فطلب حياتهم. وهرب من مصر وصار غريباً في أرض مديان أربعين سنة، وكان خبزه وماؤه على كتفه وهو يرعى الغنم. فلما نظر الله إلى كثرة تواضعه، خاطبه قائلاً: «ارجع إلى مصر وكن رئيساً على شعب الله» (خر ٣: ١٠). فقال موسى للرب: «انظر لك آخر غيرى يصلح لهذا الأمر لأنني لا أصلح له» (خر ٤: ١٠). فأغضب الرب بهذا القول؛ وقد كان قوله هذا بالطبع احتقاراً لذاته لأنه لم يتكبر قط. ولأجل كثرة تواضعه عظمه الله وأعطاه علامة في عصاه، لكي لا ينسى المسكنة بل يشكر لنعمتها. وأمره أن يصنع الآيات والعجائب بالعصا التي بيده. وكل الآيات والعجائب التي أجراها الرب معه كانت بواسطة عصاه، ليكون تذكّار مسكنته معه ولا ينساه، بسبب تلك العصا التي هي دائماً بيده، وبها شق البحر وبها صنع العجائب في مصر.

أما البحر، فقد كان ينبغي له عندما نظر عمود النور يتقدم أمام الشعب أن ينشق ويولي هارباً؛ ولكن ذلك لم يحدث. بل إن الله جعل موسى يشق البحر بعصاه التي بيده، لكي إذا تعظّم قلب موسى لكون البحر خاف منه، ينظر إلى عصاه التي بيده ويتذكر أنها هي التي كان يرعى بها الغنم في البرية، وهو غريب ومسكين، فيتضع. فهذه العصا كانت لموسى للأمرين كليهما: الأول كان تعظيماً له لأجل كثرة العجائب التي كان يصنعها بها؛ والآخر

كان تذكراً لمسكنته حتى لا يتعظم بقلبه، بل يقول إن هذه القوة ليست لي بل هي للرب.

٤ - وقد قيل أيضاً عن دبورة إنها لما نالت من الله تلك الرفعة العظيمة، التي هي تدبير الشعب كله، لم يرتفع قلبها؛ بل كانت تذكر طقس النساء وتعتبر أن الرجل هو رأسها (١ كو ١١: ٣). ولهذا فهي عندما أرادت أن تحارب سيسرا الملك، أرسلت خلفه باراق وأعطته السلطة لكي يمضي ويحارب سيسرا. أما باراق البار، فلم تضله هذه الكرامة العظيمة ولا نسى تدابير الله، بل قال لها: «إن كنتِ تنطلقين معي فأنا أنطلق» (قض ٤: ٨)، لأنه كان يعلم أن الله معها وقد ولأها التدبير، حتى أن دبورة قالت له: «إني إذا خرجتُ معك لا تكون لك كرامة؛ بل يُقال إن سيسرا سُلم بيد امرأة.» (قض ٤: ٩)

فانظروا، يا أولادي الأحباء، إلى كرامة كل منهما. فقد كان لدبورة أن تقول: إن الرب أعطاني هذه الكرامة وإني لا أعطيها لآخر؛ ولكنها ذكرت طقس النساء لسبب اتضاع قلبها. وكان أيضاً لباراق، لما تولى الأمر من دبورة، أن يذهب إلى الحرب وحده لكي يفتخر ويقول: إني أنا غلبتُ سيسرا؛ ولكنه بالأحرى اتضع حتى تأتية المعونة من الرب.

وهكذا جدعون أيضاً، لما قال له ملاك الرب: «إني مُرسلك إلى محاربة ملك مديان» (قض ٦: ١٤)، لم يتكبر قلبه، بل ذكر مسكنته ولام نفسه بأنواع كثيرة ليتخلص من الكبرياء. فقال أولاً: «يا رب، كن معي بقوتك حتى يخلص إسرائيل، لأنني أنا وهذه الربوات مذلولون. وأنا أصغر من في بيت أبي (وعشيرتي هي الذلي) في سبط منسى» (قض ٦: ١٥) فقال له الملاك: «اذهب وأنا أكون معك» (قض ٦: ١٦). ولكن تواضع قلبه لم

يتركه بغير اهتمام، فطلب من الملاك علامات، لأنه كان عند نفسه غير مستحق لهذا المقدار العظيم، ولهذا قوى على مديان بمعونة الرب. وكان دائماً يذكر مسكنته الأولى هارباً من العظمة. ولما طلب منه الشعب أن يكون رئيساً عليهم، أجابهم باتضاع قلب: «إني لا أكون رئيساً عليكم، ولا ابني أيضاً، بل الرب هو رئيسكم» (قض ٨: ٢٣). وهكذا هرب من الرئاسة، ولم تضله الكرامة في شيء.

٥ - وهكذا حنة أم صموئيل النبي، كانت تصنع له جبة صغيرة (١ صم ٩: ٢) في كل سنة، مما يخصها. ومعلوم أن هيكل الرب لم يكن محتاجاً حتى تأتي أم النبي بملايسه من عندها. لكن أمه فعلت ذلك لأنه دخل الهيكل صغيراً، لئلا يقول: إني ملاك أو أحد القوات، وقد رأيت إعلانات في الهيكل. وكانت تفعل ذلك كل سنة حتى يعرف ويتحقق ابن من هو، ويتذكر تواضعه وجنسه. ولأجل هذا كان ينمو بزيادة مرضياً لله. وحنة أمه أيضاً كانت متضعة ودیعة.

وكما أن داود النبي كان متضعاً ودیعاً، فلتتخذ نحن أيضاً، يا أولادي الأحباء، الوداعة والاتضاع مثل هؤلاء. لأن داود قال: «أذكر داود وكل دعته» (مز ١٣٢: ١). وعندما كان يرعى غنم أبيه، اختاره الله ملكاً مكرماً أكثر من جميع بيت أبيه (١ صم ١٦: ٦-١٣). ولما مضى ليحارب جليات، اتخذ ثلاثة حجارة من الوادي وخبأها في جرابه. وأخذ أيضاً عصاه التي كان يرعى بها الغنم، وتقدم نحو جليات الجبار، وحاربه وغلبه بقوة الرب. وأحضر أمام الملك شاول وصار مكرماً منه. لكنه لم يترك عنه - لأجل كرامة قصر الملك - لا عصاه ولا مخلاته، بل احتفظ بهما معه ليكون قلبه دائماً متضعاً، ويكون أيضاً مثلاً لنا لتتعلم نحن.

كما أنه لما دُهن وصار ملكاً قال: «إنني لم أنسَ مسكنتي وتواضعي ولم أرتفع بقلبي»، وقال من أجل ذلك صراحة: «يا رب لم يتعظم قلبي ولم تستعل عينائي، ولم أسلك في عظامي ولا عجائب أكثر مني، وإن كنتُ لم أتضع لكن رفعتُ صوتي مثل الفطيم من لبن أمه، مثل المجازة على نفسي» (مز ١٣١: ٢). وهذه المزامير لم يقلها داود إلا وهو ملك، ولم ينسَ مسكنته الأولى بل قال: «صغيراً كنت في إخوتي وشاباً في بيت أبي، كنت أرعى غنم أبي» (مز ١٥١: ١). وهذه الأقوال قالها لكي يعرفها جميع العالم ويتعلموا الاتضاع والمسكنة.

وهكذا أيضاً إيليا النبي، لما صنع العجائب الكثيرة، لم يترك عنه مئزرته، ولا عند صعوده إلى الفردوس، لئلا يتعظم قلبه لكثرة ما كان يصنع من الآيات، بل بعد صعوده طرحها على تلميذه أليشع. وكان أيضاً متمنطقاً بمنطقة من جلد لتذكّره أنه إنسان مسكين، وبتذكّار تلك المنطقة لم ينسَ مسكنته الأولى.

٦ - وهكذا الآباء الرسل، لما ابتدأوا يتبعون ربنا يسوع المسيح كانوا يتذكرون مسكنتهم الأولى دائماً، حتى أن ربنا قال لبطرس رأس الرسل، في كفرناحوم، عندما طوب بدفع الجزية: «امض إلى البحر وألقِ صنّارتك، وأول سمكة تطلع، افتح فاهها فتجد إستاتيراً، فخذها وأعطِ عني وعنك» (مت ١٧: ٢٧). فانظروا، يا أولادي، كيف أن بطرس لم يترك عنه صنّارته، لئلا ينسى تواضعه ومسكنته.

واعلموا أن ربنا أظهر لنا هذه الأمثلة التي تقدّم ذكرها، لكي نتضع نحن في ذواتنا ولكي يفتضح الشيطان ويخزي وتنطفئ سهامه النارية المتوقدة (أف ١٦: ٦).

وليس هؤلاء المذكورون ومن شابههم وحدهم هم الذين ذكروا مسكتهم. بل وربنا يسوع المسيح نفسه دُعِيَ ابن داود، وقال عن نفسه: «إن ابن الإنسان لم يات ليخدم بل ليخدم» (مت ٢٠: ٢٨). وكان إذ قيل له: «أنت ابن الله» (مر ٨: ٣٠، لو ٤: ٤١)، كان ينتهر من يقول ذلك. وإذا صنع العجائب والأشفية، كان يأمرهم قائلا: «لا تعلموا أحداً.» (مر ٤٤: ١)

وكان هذا تواضعاً منه لأجلنا. ولم يكن تركه الافتخار خوفاً منه؛ كلاً، لأنه قادر أن يظهر قوة لاهوته في أى وقت أراد، بل إن ذلك كان منه ليعلمنا أن نحفظ مسكتنا وضعفنا، لكي ننظر نحن الرب فتواضع. لأنه ظاهر أن لا أحد يمكنه أن يتضع بحقيقة قلبه، إلا من قد نظرت نفسه الرب.

٧ - واعلموا، يا أولادي الأحباء، أن كثيرين يسعون بالاتضاع وهم ليسوا كذلك بحقيقة قلوبهم. فهم بظاهرم متضعون أمام الناس، وهم لم ينظروا كرامة الله. وهذا (الاتضاع الداخلي) لا يناله أحد بكثرة الذهب والفضة والنحاس، ولا بالقرب من الملك الأرضي ولا من عساكره وجنوده، بل إنه مذكور عن الآباء الأطهار القديسين، أنهم إذا جاهدوا ونظروا الرب فإنهم يتواضعون بالأكثر. لأننا سمعنا المكتوب عن أيوب أنه قال للرب: «أنت تعلم، يا رب، أنني لست إنساناً خاطئاً، ومن هو الذي يخلص من يديك؟ (أي ١٠: ٧) ليت بيننا واسطة للحكم...» وبقية القول. ثم إن أيوب لما رأى الرب في سحابة، وتكلم معه وانفتحت عيناه وقلبه ونظره، اعتبر نفسه تراباً ورماداً، وندم كونه تكلم مع الرب^(٥)، فقال: «إني أضع يدي على فمي

(٥) قارن: أي ٤٢: ٦.

لأنني تكلمتُ مرةً ولا أرجع إلى مثلها» (أي ٤٠: ٤-٥).

وهكذا أيضاً إشعياء النبي في الأول بكتَّ الشعب على خطاياهم، ولكنه بعد أن رأى رب الصباؤوت، والساووفيم قيام حوله، أظهر تواضعه بالأكثر قائلاً: «الويل لي لأنني إنسان خاطئ، ذو شفاه دنسة.» (إش ٦: ٥)

وتلاميذ ربنا يسوع المسيح كانوا يأكلون ويشربون معه، ولم يخافوا عند مفاوضته لهم. لكنه لما تجلَّى على طور (أي جبل) طابور وتغيَّر شكله أمامهم، سقطوا على وجوههم، وعرفوا مسكنتهم وتواضعوا وعلموا أنهم لا شيء أمام مجد السيد المسيح. وموجود عندنا شهادات كثيرة كهذه، لأن سبب كثرة تواضع القديسين هو ما رأوه من مجد الله.

والعمل الذي صنعه ربنا مع تلاميذه يُقنِّعنا بالأكثر لكي ما نعرف أن الاتضاع الحقيقي يكون للنفس، في هذا العالم، برويتها من بُعد للمجد المعدَّ المُزمع أن تناله. لأن الإنجيل المقدس يقول: «إن ربنا لما علم أن الآب قد سلَّم في يديه كل شيء، قام عن العشاء وخلع ثيابه واشتدَّ بمنديل، وصبَّ ماءً في لقآن، وبدأ يغسل أرجل تلاميذه ويمسحها بالمنديل المشتدَّ به» (يو ١٣: ٣-٥)، لأن تلاميذه صاروا متضعين.

٨ - وهكذا، يا أحبائي في الرب، إذ قد نظرتم مجد الرب وعرفتم ميراثه الذي تقبلونه، اتركوا عنكم مجد البشر وداوموا في هذا الاتضاع العظيم. لا تنتقلوا من موضع إلى موضع لأجل مجد الناس فتنسوا مسكنتكم الأولى. لأنني أرى قوماً هكذا هي صورتهم: يطلبون مجد الناس؛ فإذا حصلوا على ذلك في مجامعهم ينتقلون إلى مجامع أخرى لكي يحصلوا على مزيد من مجد الناس. فإذا قد عرفتم الآن هذا، يا أولادي، فلا تنتقلوا من مجمع إلى مجمع

لأجل مجد الناس، بل كونوا عند ذواتكم كالأطفال، وتشبهوا بتلميذي يوحنا المعمدان، لأنهما لم يتركا بقصد الافتخار بغيره، بل لما علما أن الرب يسوع أعظم من يوحنا، بشهادة يوحنا نفسه عنه، تبعاه لكي يصيرا من الأطفال الجدد^(٦). فاصنعوا أنتم هكذا في كل حين عندما تذهبون إلى من هو أكبر منكم، ليتم فيكم المكتوب: «ليتجدد شبابك مثل النسر.» (مز ١٠٢: ٥).

٩ - وقلوا إننا خطاة وابكوا على أرواحكم لأجل ما قد صنعتموه بقلة المعرفة. وبهذا تكون بالحقيقة إرادة الله كائنة معكم وعاملة فيكم، لأنه صالح ويغفر خطايا كل من يرجع إليه من البشر ولا يذكرها بعد؛ بل هو يريد أن يذكرها هم خطاياهم السابقة لئلا ينسوها فيصيروا مطالبين. بما قد غفر لهم من الخطايا. لأنه هكذا جرى لذلك العبد الذي ترك له سيده ما كان عليه من الوزنات، فلما نسي ذلك وتصرف بجهل مع رفيقه في العبودية، طلب منه سيده كل ما كان له عليه، أى ما كان قد تركه له، لأنه لم يرحم رفيقه في العبودية فيترك له المائة دينار، التي هي مقدار يسير بالنسبة لما ترك له (مت ١٨: ٢٤-٣٤).

وموسى أيضاً أوصى شعبه في البرية أن لا ينسوا خطاياهم الأولى، بقوله لهم: «إذا ما دخلتم الأرض التي تراثونها، فاحترسوا إذا استغنيتم من أن تأكلوا وتشربوا وتبظروا؛ لكن اذكروا العبودية التي كانت لكم في مصر^(٧)، وما أغضبتم الرب به أيضاً في البرية (تث ٩: ٧)؛ ويكون هذا التذكار لكم طول أيام حياتكم (تث ٩: ٤).

(٦) المقصود هو ما جاء في يوحنا ١: ٣٥-٣٦: ٣-٨.

(٧) قارن: تث ٨: ١١-١٤.

وهذا تعليم لنا، يا أولادي الأحياء، إذا ما صرنا عبيداً زماناً بمصر، التي هي الخطيئة التي استُعبدنا لها بإرادتنا. فلنجاهد، إذاً، أن ندخل أرض الميعاد؛ وإذا دخلنا فلا ننسى عبوديتنا، بل نذكرها دائماً، لئلا نأكل ونشبع ونبطر. وليس موسى وحده هو الذي يعلمنا ذلك، بل وسائر الأنبياء أيضاً هكذا يعلموننا أن لا ننسى خطايانا التي غفرها الله لنا ونسيها هو؛ بل نكون نحن لها ذاكرين كل حين، لكي ما نكون على الدوام متضعين أمام الرب، مثل قوم ماثلين أمام من له عليهم دين.

وانظروا إلى داود النبي أيضاً، إذ أنه لما أخطأ مع امرأة أورثياً وبكته ناثان النبي لأجلها ولأجل ما صنعه بزوجها أيضاً؛ فعندما سمع التبيكيت ندم وتواضع لوقته. ولهذا قال له ناثان: «إن الله قد غفر لك خطاياك.» (٢ صم ١٢: ١٣)

لكن داود لما حَظِيَ بالصفح عن خطاياه لم ينسها ولا ترك تذكرها عنه، بل كتبها في المزمور الخمسين، وصار ذلك تذكيراً في جميع الأجيال من جيل إلى جيل. ولما حَظِيَ بالصفح قال: «إني أُعَلِّمُ المخالفين طرقك، وإليك يرجع المنافقون» (مز ١٥٠: ٥٠). وهذا كله قاله داود ليتعلم منه كافة الخطاة ويتوبوا مثله، ولا ينسون خطاياهم التي تُترك لهم، بل يكونون لها ذاكرين في كل وقت.

وقد قال الرب أيضاً في سفر إشعياء النبي: «إني أحبو خطاياك ولا أذكرها، أما أنت فاذكرها أولاً لتتركها» (إش ٤٣: ٢٥-٢٦). ولهذا يجب على الخاطي، إذا ترك له الله خطاياه ألا ينساها هو بل يذكرها لكي يتزكى.

وقال الرب أيضاً في إرميا النبي: «ارجعوا إلى يا جميع بيت إسرائيل فلا آتي بتبكيكي عليكم، لأنني رحوم يقول الرب، ولا أغضب عليكم إلى الأبد. ولكن اعرف أنت ظلمك وأنت قد صرت جاهلاً بذاتك ومنافقاً على إهلك» (إر ١٢: ٣-١٣). هكذا نحن، يا أولادي الأحباء، يجب علينا إذا ما غفر لنا ربنا خطايانا ألا نغفرها نحن لذواتنا، بل نذكرها دائماً بتجديد التوبة.

ولهذا فإن يوحنا المعمدان لما كان يعمّد الشعب للغفران، أمرهم قائلاً: «لا تكونوا بغير اهتمام بسبب غفران خطاياكم، بل اصنعوا ثماراً تليق بالتوبة؛ لأن ها هوذا الفأس موضوع على أصول الشجر، وكل شجرة لا تثمر ثمرة صالحة تُقَطَّع وتُلْقَى في النار.» (لو ٣: ٨-٩)

١٠ - فهذه كلها ذكرتكم بها، يا أحبائي، لأنني أذكر عِظَم فضيلتكم، ولئلا تتغافلوا فيخفى نوركم؛ بل أن تزدادوا ثماراً تليق بإسكيمكم الملائكي الذي أنتم لا بسوه.

واعلموا هذا أيضاً، كيف أنه لما وجد ذلك الإنسان الكنز المخفى في الحقل، باع كل مقتنياته واشترى ذلك الحقل (مت ١٣: ٤٤). فأنتم الآن، يا أحبائي بالرب، قد ظهر مجدكم في (بجامع) الشركة جميعها. لكن لا تنفكروا في هذا لئلا تتعظّموا؛ بل باتضاعكم ووداعتكم اذكروا مسكتكم الأولى، فصبروا كمن لا يعلم ذلك.. لأن موسى لما تمجّد لم يعلم بيهاء وجهه لسبب تواضعه ووداعته؛ لكن الشعب علّم بذلك وصار في خوف عظيم من نظره إيّاه، فستر موسى وجهه (خر ٣٤: ٢٩-٣٣).

هكذا أنتم، يا أحبائي، إذا ما تركتم عنكم خيرات هذا العالم الزائل

الذي هو أرض الأموات، كما تركه مَنْ تقدّم ذكرهم، فليكن رجاءكم قوياً لكي تنالوا الخيرات من الرب في أرض الأحياء. فلا تطلبوا، يا أولادي المباركين، أن ترضوا الناس الذين في كورة الأموات؛ وإلا فلا تستطيعوا أن ترضوا الرب في كورة الأحياء.

وإذا نلتُم الخلاص من خطاياكم، فلا تغفروا أنتم وحدكم لأنفسكم؛ لئلا تكون ثمار توبتكم عاجزة؛ بل تشبّهوا بمعلم المسكونة، بولس الرسول، الذي بعد أن غفر له الرب بظهوره له وكلامه معه، لم يغفر هو لذاته وحده، ولم ينسَ عدم معرفته الأولى التي قد نسيها الرب برحمته؛ بل قال: «إني كنت مضطهداً لكنيسة الله» (١ كو ١٥: ٩، غل ١: ١٣)، وأمثال ذلك.

وربنا يسوع المسيح يحفظكم في طاعته إلى الأبد؛ الذي ينبغي له التقديس والتسبيح مع أبيه وروح قدسه الآن وكل أوان. آمين.

الرسالة السابعة عشرة

لأولاده الرهبان

يعرفهم أن الاتضاع الحقيقي لا يحصل إلا بعد نظر
الشاؤريّا، التي هي نظر الله. ويبيّن رتبها الثلاث:
الأولى والوسطى والكمال، بشهادات من العتيقة
والحديثه. ويحرّضهم على تكميل ذلك بمعونة الرب.

١ - إعلموا، يا أحبائي، أنه ليس الثابت في شيء واحد هو الناسك،
ولا المتمسك بشيء واحد هو المضاد للفضيلة. فإن كان النسك هو فخر
الفضيلة، فالكثير من الشرور يضادها. فالذي يريد أن يصير كاملاً في
النسك لا ينبغي أن يتعبد لشيء من الشر، لأن الذي يتعبد لشيء واحد من
الشر هو بعيد عن حدّ الكمال. فالكمال هو كما قيل: «إننى تحررتُ من
كل شيء لكي أربح الكثيرين.» (١ كو ٩: ١٩)

وهذا القول قاله بولس الرسول لأنه لم يجعل ذاته عبداً للشر، ولأنه لم
يُعدّ يعلم ما كان قد تركه عنه. فلما انعتق من الشر وتحرر منه نهائياً، طلب
من أجل فائدة الكثيرين الذين كانوا يريدون أن يتعبدوا للشر، حيث لم يكن
لهم استطاعة أن يتخلصوا من خطيئة شرورهم، لكونهم عاجزين عن قوة
القاتل في المزمور: «لنقطع أغلاهم ولنلقِ عنا نيرهم» (مز ٣: ٢). هكذا لما
نظر الرسول بولس إلى الرب يسوع حصل على الكمال؛ وعندئذ صار
معاضداً للذين ليس لهم قوة حتى يبلغوا الكمال ويمضوا إلى العلو.

ولقد أدرك ذلك بكثرة التواضع الذي صار له على مثال ربنا يسوع المسيح الذي جعل - بكثرة تواضعه - لاهوته مستتراً بناسوته؛ فكان يُنظر إليه مثل إنسان بينما هو لم يكن إنساناً فقط بل إلهاً متأنساً؛ كما المكتوب: «والكلمة صار جسداً وحلَّ فينا» (يو ١: ١٤). والرسول بولس أيضاً، لما كان سائراً بالتواضع كالأوامر التي أمره بها ربنا، قال: «إنني صرتُ مع من لا ناموس له، كمن لا ناموس له، مع أني لم أكن بلا ناموس؛ لأربح الذين لا ناموس لهم» (١ كو ٩: ٢١). ولم يصير الرسول بهذا خارجاً عن كماله، كما لم يصير ربنا خارجاً عن لاهوته بتجسده الذي كان لا بد منه (من أجلنا)، كما قيل في الناموس وكما كُتب في الإنجيل أن «الكلمة صار جسداً وحلَّ فينا.» (يو ١: ١٤)

وإذ كان الرسول كائناً في كماله، لأنه أولاً: قد انعتق من كل شر؛ وثانياً: إنه لم يتعبّد لشيء من الشهوات لكونه صار ناسكاً؛ وأخيراً: لأنه تحرر بنظره للرب يسوع المسيح، وعندما رآه للوقت تبع أقواله بلا تأخير، وصار في غاية الكمال والاتضاع.

هكذا كل الذين يتمسكون بأقوال الرب يعرفون الحق، والحق يصيِّرهم أحراراً؛ ويعتق نفوسهم من كل الشر، كما صار هكذا بولس الرسول، لأن مخلصنا صيِّره حراً. ومن أجل ذلك قال هو عن نفسه: «أَفَلَسْتُ أنا حراً؟ .. أَوَلَمْ أُنظر الرب كما نظره أولئك (الرسل) الأولون؟» (١ كو ٩: ١)

وكثيرون يقولون بجهالتهم: إننا رأينا الرب يسوع مثل الرسل. فهو لاء، يا أولادي الأحباء، مخدوعون وضالون وليس لهم عيون ينظرون بها كما نظر الرسولُ الربَّ. لأن الرسول رأى الرب كما كان يراه الرسل الذين كانوا معه ومن آمن به في ذلك الوقت حين كان يمشي والجموع حوله فيما

كانوا ينظرونه كإنسان. أما نازفة الدم، إذ نظرته بعيني قلبها، آمنت أنه إله ولمست طرف ثوبه وخلصت. أما هو فقال: «مَن لمسي؟» ليس لأنه كان غير عارف، بل ليُشهر إيمانها. فقال له بطرس: «إن الجمع يزحمك وتقول: مَن لمسي؟» ولما أظهرت تلك أنها شُفيت، قال لها الرب: «اذهبي بسلام؛ إيمانك خلّصك» (لو ٨: ٤٣-٤٨). أما عن ييلاطس وحنّان وقيافا، فقد رأوا الرب كسائر الجموع الذين كانوا ينظرونه بعيني الجسد فقط. ولأنهم لم ينظروه بإيمان كما نظره الرسول، لذلك لم يستفيدوا شيئاً من نظرهم له. أما الرسول فقد نظره بعيني قلبه وبإيمانه القوي، كما نظرته نازفة الدم التي لمستته بإيمان فشُفيت.

فكما ظهر ربنا يسوع المسيح لرسوله بولس بعد غلبته للأوجاع وصيرّه حرّاً، هكذا كل من انقطع من الأوجاع، فإنه ينظر الرب بعيني قلبه ويتحرر. لكنه لا يستطيع أن ينظر بعيني جسده ذلك النور البهيّ جداً الذي نظره بولس الرسول.

أما أولئك المخدوعون المتعظمون بنفوسهم، فشرُّهم عظيم. وهم لا يستطيعون أن يقبلوا خبز الحياة، لأن أعينهم غير نيرة. وهم غير مرضين لله الذي يسجد له جميع الأطهار ويرونه بقلوبهم؛ لأن ربنا يظهر لمثل هؤلاء الذين هم ليسوا عبيداً للأوجاع. لأنه مكتوب هكذا من أجل إشعياء النبي، أن الرب لم يعد يظهر للنبي لكونه لم ييكت الملك عزّاً ومُنْع من النبوة. وبعد وفاة عزّيّا ظهر له ملاك الرب وطهره بالجمرة وبالكلابتين الناريتين (إش ٦: ٦).

فاعلموا، إذن، يا أحبائي، أن الإنسان إذا مات منه سلطان الخطية، فإن الله يظهر للنفس ويطهرها هي والجسد معاً. فإن كان سلطان الخطية حيّاً في

الجسد، فلا يمكن للإنسان أن ينظر الله، لأن نفسه كائنة في الظلمة ولا يمكن أن يظهر فيها النور الذي هو نظر الله.

لأن داود يقول: «بنورك يا رب نعاين النور» (مز ٣٥: ١٠). فما هو هذا النور الذي يعاين الإنسان به الله؟ إنه النور الذي ذكره ربنا يسوع المسيح في الإنجيل؛ أن يكون الإنسان كله نيراً وليس فيه جزء مظلم (لو ١١: ٣٦). كما قال أيضاً: «ليس أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يُعْلِنَ له» (مت ١١: ٢٧). والابن، يا أولادي، لا يُظهر أباه لبني الظلمة، بل للثابتين في النور، الذين هم أبناء النور وقد أضاء عيون قلوبهم بمعرفة الرُصايا.

٣ - فيجب علينا أن نتشبه أولاً بموسى، العظيم في الأنبياء، لنجد مجد إيمانه بالله الذي لا يُرى. لأن موسى صار ابناً لابنة فرعون. ولما اختار أن يتعب مع شعب الله، ترك عنه العبودية المملوءة إهانة. وهو لم يكن قد نظر الله بعد، إذ كان (ما زال) في العبودية؛ لكن لما خلاص من تلك العبودية التي لفرعون، عند ذلك تحرر واستحق أن ينظر العوسجة (أي العُلَيْقة) مشتعلة بالنار وهي لا تحترق. وقيل إنها كانت رؤيا عظيمة، وكانت هذه له بداية، ثم نظر السر الأوسط، وبعده الكمال.

وموسى هذا، لما ترك مصر وهرب من فرعون، كان له يومئذ أربعون سنة. وقد عمل عملاً مضاداً لفرعون، ثم تفرّد في برية مديان التي تأويلها «موضع الله». لأن العقل إذا انفرد عن الكثيرين وصار في الوحدة، فإن الله يقويه ويثبتَه ليتمكنه أن يسأل ويبحث في ما للرب؛ وعند ذلك ينظر عظمة قوته ولاهوته وبهائه في خلائقه.

فيا أولادي الأحياء، إن بداية الرؤيا العظيمة هي النظر الأول الذي نظره موسى وهو متعجب كون العوسجة مشتعلة ولم تحترق، وهذا النظر بعيد من حد الكمال. أما نظر السر الأوسط، فهو أنه تقدم بزيادة أكثر من الأول وقال: «أذهب الآن لأنظر ما هذه الرؤيا العظيمة» (خر ٣: ٣). فلما تقدم ناداه الرب. أما الكمال فهو تواضعه بعد مخاطبة الله له، ونظره وعمله الآيات.

٤ - واعلموا، يا أولادي الأحياء، أن هذه المناظر التي لله هي بالنسبة لغير الكاملين مثل الناظرين في المرآة. أما الذين وصلوا إلى الكمال، فإن عيون قلوبهم تنكشف ويظهر لهم نور عظيم براحة لا تعب. لأن أعين الكاملين لا يبقى فيها شيء من تبيكيت الخطية ولا الظلمة. لأن هاتين إذا كانتا موجودتين في القلب لا تدعان النفس تنظر نظر الكمال الذي للكاملين، الذي كان لبولس ومن يشبهه، الذي قال عنه هذا الرسول: «إننا بوجوه مُسْفِرَةٍ ننظر إلى مجد الله، كَمَن ينظر في مرآة، وتغيّر ذواتنا من مجد إلى مجد.» (٢ كو ٣: ١٨)

هكذا موسى لم ينتقل من موضع إلى موضع، ولا من كورة إلى كورة أخرى، بل كان (انتقاله) انتقالاً ظاهراً عجيباً؛ لأنه نظر هذه الرؤيا العظيمة التي هي اشتعال النار في العوسجة من غير احتراق، ثم مخاطبة الله له ومعاناة المنظر. فهذا هو الانتقال العجيب الذي هو مثال السر العجيب غير المدرك. وهذا الانتقال هو الذي ذكره بولس الرسول أنه انتقال «من مجد إلى مجد»، ومن إيمان إلى إيمان (أعظم)، ومن فضيلة ناقصة إلى فضيلة كاملة. فهذا الانتقال والتقدم هو الذي يُقَرِّبنا للرب، فنأخذ نظر معرفة قوته، لأن الله يقول على لسان نبيّه: «إن المقترين مني يعرفون قوّتي.» (إش ١٣: ٣٣)

فإذا كان الذي يقترب إلى الله يعرف قوته، فالذي لا يقترب إليه لا يعرف قوته. أما العقل الذي لم يقترب بعد من الله، فإن المنافق - الذي هو الشيطان - يرتفع فيه مثل أرز لبنان. فإذا اقترب العقل من الله واتحد به وصار معه واحداً، فإن المنافق لا يعود يظهر للذي كان يرتفع فيه أولاً. وعن هذا يعلمنا داود قائلاً: «رأيتُ المنافق قد زاد علواً وارتفع متطاولاً مثل أرز لبنان، ثم عبرتُ فإذا هو كأنه لم يكن، طلبته فلم أجد مكانه» (مز ٣٦: ٣٥-٣٦). وداود لم يطلب المنافق ولا موضعه إلا لبحثه عن معرفة الله، ولهذا لم يجد المنافق على الإطلاق. وقوله «عبرتُ» هو كقوله في مزموه آخر: «إنني سأجوز في موضع مظلة عجيبه إلى بيت الله.» (مز ٥: ٤٢)

٥ - ولا تتعجبوا، يا أولادي الأحباء، من أن طريقنا بعيدة؛ ذلك أننا ما زلنا في الطفولة الروحانية، لأننا نرى أنه قد قيل لذلك النبي العظيم إيليا: «قُم كُل واشرب وتقوّ، لأن طريقك بعيدة» (١ مل ١٩: ٧). وعن هذا البعد قال داود: «من يعطيني أجنحة حمامة لكي أطير وأستريح» (مز ٥٤: ٧)؟ وبهذا يجب علينا أن نعلم أن حياة كل منا مُعوّزة والطريق شاقة. ولذلك ينبغي علينا أن لا نسعى بضعف وانحلال وتوان، بل بتحفظ وثبات. لأن معلم المسكونة بولس يشير علينا أن «نبحر لنُدرِك» (في ٣: ١٢)، ويقول أيضاً: «إنني أقمع جسدي وأصيرُه عبداً.» (١ كو ٩: ٢٧)

فلنجر الآن، يا أولادي الأحباء، ما دام لنا وقت في هذا الجسد، لكي ندرك الكمال، كما أدركه القديس بولس، الذي قال: «إنني قد جاهدتُ الجهاد الحسن وأتممتُ سعيي وحفظتُ إيماني، وحُفظ لي منذ الآن إكليل

فخري» (٢ تي ٤: ٨). فلما أدرك هذا الرسول الكمال في الجسد، اشتهي الخروج منه وقال: «وأنا أيضاً إن كانت لي في حياة جسدي هذا أثمار في أعمالي، فلست أدري ما أحتره لنفسي. إن الأمرين كليهما ليضطراني أن أهوهما؛ فإني أشتي أن أنطلق وأفارق الدنيا لأكون مع المسيح، وهذا هو الأصلح لي كثيراً والأأنفع. وأشتي أيضاً أن أبقى حياً بجسدي، يضطرني الأمر إلى ذلك من أجلكم لسروركم وتربية إيمانكم. فلتكن سيرتكم كما يُلائم البشري (أي الإنجيل).» (في ١: ٢٢-٢٧)

فهكذا، يا أولادي الأحباء، اصنعوا أنتم أيضاً، لأن كل من يسعى بالتواني والكسل، فإن آخرته تدركه قبل كماله بالمسيح. كما قال سليمان في الأمثال: «إن أنفُس مخالفي الناموس تنزع قبل أن تصل إلى خوف الله» (أم ١٠: ٢٧). وهكذا حدث لحزقيا الملك (٢ مل ١٠: ١١، إش ٣٨: ١-٨ و ٢١-٢٢)، عندما أدركه فناء أيامه وهو بغير اهتمام، فلما رجع عما كان عليه وطلب من الرب، استحق زيادة سنين أخرى ونما بزيادة. ولما تمت تلك السنين فارقت نفسه جسده وهو في غاية الكمال من خدمة الله.

واعلموا هذا أيضاً؛ كما أن للجسد ثلاثة مقادير في مدة دوام النفس فيه، وهي: الصبا، والرجولة، والشيخوخة؛ هكذا النفس لها ثلاثة مقادير أيضاً مخفية في الجسد؛ وهي: بداية الإيمان، والعمل، والكمال. فأولاً، إذا ابتدأت النفس أن تؤمن، فإنها تولد في المسيح، كما قيل في الإنجيل (يو ٣: ٣). ويوحنا الرسول أعطانا أيضاً علامة لهذا الميلاد ووسطه وكمال بقوله: «كتبت إليكم أيها الشبان ... كتبت إليكم أيها الأبناء ... كتبت إليكم أيها الآباء ...» (١ يو ٢: ١٢-١٤). وهذه الكتابة ليست هي لأحباؤه الجسدانيين (أي ليست بحسب قامات الجسد)، بل للمؤمنين بمقاديرهم

الثلاثة: الذين يشتهون اللبن العقلي (١ بط ٢: ٢)، و(الذين) يتقدمون نحو الكمال، و(الذين) يستحقون النعمة الحقيقية. ولهذا فإن داود لما علم مقدار أيام كمال النفس ههنا، وأنه قد طعن في أيام الجسد، وقد قارب أن ينحلَّ منه ولم تكن له تلك الأيام التي للنفس؛ طلب من الله قائلاً: «لا تأخذني يا رب في منتصف أيامي» (مز ١٠١: ٢٥). وهذا الاهتمام كان منه بالنسبة للأيام الروحانية لا الجسدانية. لأن معنى قوله: «في منتصف أيامي»، هو فزرعه من أن تؤخذ منه نفسه قبل كمال أيامها ويكون غريباً عن الكمال.

٧ - وهكذا أيضاً، إبراهيم، شَهِدَ عنه أنه شاخ وطعن في أيامه. كذلك جميع الأطهار، من بعد إيمانهم، كانوا يُتَعَبُونَ أجسادهم ليدُلُّوها، لأن إذلالهم لأجسادهم هيأ لهم شيخوخة في نمو العبادة وخدمة الله.

وافهموا كذلك، يا أولادي الأحباء، أمر دانيال وكيف صار صبيّاً بجسده وشيخاً بعقله؛ لا كمثّل الشيخين اللذين طعنا في أيامهما بالجسد، بينما أفعال الصبيان وشهوة الصبا معهما. وهذان بكتّهما الكلام الطاهر من الصبى دانيال على شيخوختهما الجسدانية الصبائية، وحكمهما على القديسة البارة سوسنة، إذ قال لهما: «أبها اللذان طعنا في أيامهما الرديئة» (دا ١٣: ٥٢)، وبقيّة القول.

٨ - هكذا كل من يحب النسك عليه أن يتشبه بطهارة يوسف وعفته، ويتدبّر ذاته على التلاوة (أي الهذيد) ويتقوى على جميع الشهوات الجسدانية لأنها حقيرة. وحينئذ يستطيع أن يدوس الشهوات الأخرى القوية التي للعدو المحتال، ويقول كما قال أيوب: «إن القوة قد فرغت من صلبه وصرّة بطنه.» (أي ١٦: ٤٠)

وبالحقيقة، يا أولادي الأحباء، إن كل من يجاهد ويتقوى على الشهوات الجسدانية التي تتولد من كثرة المآكل والمشارب، فهو يستطيع أن يشدّ حقيقه بالطهارة، ويطيب قلبه بما قيل في المزمور: «تَقَلَّدْ سَيْفَكَ عَلَى فَخْذِكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ» (مز ٤٤: ٤). وهذا القول يعنى به أن كلمة الله التي تُقَتِّلُ بها الطهارة، هي «سيف قاطع ذو حَدَّين» (عب ٤: ١٢) كما يقول الرسول. وهذا السيف له الاستطاعة أن يقطع ويميت جميع الشهوات الرديئة.

وهكذا يعقوب أيضاً، لما صارعه الملاك، استلَّ عِرْقاً من فخذه، ولذلك خذل وضعف جسده وسُمِّي إسرائيل، وتعني: "ناظر الله" (تك ٣٢: ٢٥).

فهكذا يجب علينا نحن أيضاً أن نُضعِفَ الجسد، بحكمة وتدبير، لكي تضعف الشهوات وتنطفئ. وهذا الضعف يكمل فينا قوة الطهارة (٢ كو ١٢: ٩). وعن هذا الضعف يقول الرسول: «إنني إذا ما كنتُ ضعيفاً، فحينئذ أُصير قوياً.» (٢ كو ١٢: ١٠)

كما أن النبي داود افتخر أيضاً بهذا الضعف بقوله: «إنه ليس لجسدي شفاء» (مز ٣٧: ٤). وهو قال ذلك لأنه كان قد أضعف جسده الضعف الكريم، لأنه كان يطلب الخلاص العظيم. فليس هذا عدم شفاء، بل شفاء وخلاص؛ لأنه إذا ضعف الجسد حينئذ تقوى النفس.

فلنضعِف - إذن - أجسادنا، بحكمة وتدبير، لكي نستطيع أن نضبط ذواتنا. لأننا إذا أقمعنا الجسد واستعبدناه للنفس، فإن الأفكار الجسدانية التي «محبته عداوة لله» (يع ٤: ٤) تموت بذلك الضعف. حينئذ تضيء النفس وتصير هيكلًا للروح القدس.

٩ - فالذي يجاهد لكي يصير طاهراً بجميع أعضائه، فهذا هو الناسك

بالحقيقة، وليس بزان؛ وهو الذي يمكنه أن يقول مع داود: «عظامي كلها تقول: مَنْ يشبهك يا رب؟» (مز ١٠: ٣٤)

وهذا هو الذي علّم جميع حواسّه، ولم يدعّها تتسلّط عليه، وثبّتها ووضع عليها نير الرب بعظم طهارة. فهو لن يدع عينيه تنظران إلى شيء غير صالح ولا تشتيهان امرأة، ولن يترك أذنيه تسمعان نغمة ولا مشورة الشيطان وأفكاره، ولأجل هذا تمّ عليه المكتوب: «إن أذنك لم تميلْ لكلام الباطل» (مز ١٤٠: ٤). وهذا الكلام جعله بالأكثر متعبداً للمسيح كالطيب العطر والبخور الزكي. وفمه أيضاً جعل عليه حافظاً (مز ١٤٠: ٣)، ولم يتركه يتفرغ لكلام الجهل. ويداه جعلهما تعملان بغير ظلم (أو غش) أعمالاً حسنة بالرحمة والحق. ورجلاه لا تسعيان لسفك الدماء، بل تسرعان بنشاط نحو قول الرب: «مَنْ سخرَك ميلاً فامضِ معه اثنين» (مت ٤١: ٥). وبطنه وصدرة يحفظهما حتى لا يسقط بهما على الأرض، مثل الثعبان الذي يدب على بطنه وصدرة.

١٠ - فهذه، يا إخوتي، هي صفة الناسك. أما الذين ليسوا بنسّاك، بل يبيّرون لشرب المسكر، فإننا نسمع بخصوصهم قول النبي القائل: «إنهم يحترقون بسكرهم من الخمر، وعيونهم يعطونها لتداول الكؤوس، ويأكلون الجياد من قطعان الغنم، والعجول والرضعان من البقر، ويتنعمون باللبن من الفراش، ويتلذذون بكل ما يليق بالهيوالي» (عا ٦: ٤-٦). وهم يفكرون في ذواتهم أنهم حكماء، بينما هم أعداء وتنانين؛ لأن الثنين يعمل فيهم، وقد ألقوا بطونهم وصدورهم على الأرض. ويظنون في نفوسهم أنهم عقلاء وعارفون بالكتب، وهم يعلمونها رديئاً، لأنهم صدور للثنين.

فاعلموا هذا، يا أولادي الأحباء، أن هؤلاء الذين يقصدهم النبي، هم

الذين يُدخلون الاعتقادات الغريبة على التعاليم الصحيحة والإيمان الحقيقي، ويضادون الإيمان القويم الثابت بإيمانهم الكاذب غير الثابت، قائلين عن الذي خلق كل الأشياء أنه مخلوق، ولم يعلموا أن الله خلق الكل بكلمته، كما شهد يوحنا الإنجيلي لأجله قائلاً: «فى البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وإله هو الكلمة. كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو ١: ١-٣). فإذا قد ثبت أن الأشياء كلها به كانت: السمائيون والأرضيون، ما يُرى وما لا يُرى، كما شهدت بذلك الأمانة الصادقة (أي قانون الإيمان)، فكيف يجسر هؤلاء أن يقولوا عنه بعد اتحاده (بالجسد) أنه كأحد المخلوقات بقولهم إن المسيح مخلوق؟ فهؤلاء هم الذين جعلوا صدر قلبهم محصوراً تحت صدر التين، كما تقدم قول النبي عنهم إن التين يسعى في صدورهم وبطنهم.

أما الذين أنهضوا عقولهم، يا أولادي الأحباء، من الأرض ناظرين إلى السماء حيث المسيح جالس عن يمين الله، فقد صاروا خارجاً عن البطن وشهواتها. وربنا يسوع المسيح الجوهر الواحد، الأقنوم الواحد، الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة، يقبلهم ويقدمهم إلى أبيه كالأشياء الفاخرة الحسنة.

١١ - فإذا قد عرفنا هذا، يا أحبائي، فيجب على من يريد منا أن يكون ناسكاً، أن يجتهد في البعد عن الجموع ولا يقترب منهم كي يبقى بجسمه وقلبه خارجاً عن اضطرابات الجموع والخلطة، لأن الاضطراب العظيم يوجد بين الناس.

ومخلصنا يسوع المسيح، قد صار لنا مثلاً للبعد والانفراد بطلوعه الجبل وحده منفرداً ليصلي، وأيضاً غلبته لإبليس في البرية لما حاربه. وهذا ليس

لأنه كان عاجزاً أن يغلبه في وسط الكثيرين، لكن حتى يعلمنا أننا بالانفراد والهدوء نقدر أن نغلب أعداءنا وندرك الكمال. كما أن مخلصنا لم يُظهر مجده لتلاميذه أمام الناس، بل أخذهم وصعد إلى الجبل وأراهم مجده. وأيضاً يوحنا المعمدان كان في البرية إلى يوم ظهوره لإسرائيل.

واعلموا أيضاً، يا أولادي الأحياء، أن عدونا مشتتٌ علينا بأسلحته الظاهرة والخفية، وأنه قد جعل له أناساً آله وسلاحاً لطاعتهم إياه، وبهؤلاء يضاد المؤمنين؛ مثل المرأة غير العفيفة التي يتخذها سلاحاً قوياً له، لأنها تفرش جناحيها بجسارة قلب.

وأيضاً بطرس رأس الرسل، يعلمنا منفعة الانفراد، لأنه لما كان وحده (ليصلي) نظر السماء مفتوحة والإزار هابطاً عليه، وناجاه الله بخصوصه؛ وبعد ذلك ارتفع عنه الإزار إلى السماء (أع ١٠: ٩-١٦).

هكذا حزقيال (النبي) لما نظر الأربعة حيوانات ذوي الوجوه الأربعة مع البكرات، هذه التي تدل على مجد الله، لم يكن ذلك في مدينة ولا في قرية، بل خارجاً في حقل. لأن الله قال له: «اخرجْ إلى الحقل وهناك تنظر مجدي» (حز ٢٢: ٣). وبالإجمال، فهذه المناظر والإعلانات لم تصير للقديسين إلا في الجبال والبراري.

والرسول بولس أيضاً تكلم عن هؤلاء القديسين وسيرتهم المكرمة في رسالته إلى العبرانيين، إذ يقول هكذا: «إن هؤلاء كانوا تائبين في الجبال والبراري والأودية والغيابر وشقوق الأرض» (عب ٣٨: ١١). وأيضاً، النبي، لما عَلِم أن الانفراد يُرضي الله، قال: «إنه جيد للإنسان أن يحمل نير الرب من صغره ويجلس وحده» (مرا ٢٧: ٣-٢٨). وقال أيضاً داود النبي: «إني

أكون وحدي حتى يجوز الإثم» (مز ٥٦: ٢). وإرميا النبي أيضاً لمعرفته بالاضطراب الذي يكون في الجموع وأنه يُقلق الذين يريدون أن يرضوا الله، لم يستعف أن يقول: «مَنْ يعطيني مسكناً في القفر، لأترك عني هذا الشعب وأمضي وأبتعد عنهم؟» (إر ١: ٩-٢).

فاعلموا، يا أولادي الأحباء، فضيلة الانفراد؛ لأن ربنا يسوع المسيح، بانفراده دفعات كثيرة، جعل لنا رجاء ثابتاً في محبة الانفراد، كما قال داود النبي: «لأنك أنت يا رب على الرجاء أسكنتني مطمئناً» (مز ٤: ٩). وإيليا النبي أيضاً، الذي استحق الطعام الروحاني والاعتذاء من ملاك الرب، لم يكن له ذلك في وسط الجموع، لا في مدينة ولا في قرية، بل في البرية فقط.

فكل ما صار للقديسين من هذه وأمثالها: «كُتِبَ لتعليمنا نحن» (١ كو ١٠: ١١)، لكي نغير من هؤلاء الذين أحبوا الانفراد الذي له استطاعة أن يوصل إلى الرب؛ لأنه عزاء عظيم ويجعل الإنسان كاملاً. والذين أحبوا الانفراد بكل قلوبهم وبكل ذواتهم، صار لهم شرف ونور أكثر من سكان المدن والقرى. فاجتهدوا، إذأ يا أولادي الأحباء بالرب، أن تثبتوا فيه كما ينبغي ليوصلكم إلى نظر الله الذي هو الثاوريًا الروحانية، بنعمة ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي له المجد من جميع الناطقين مع أبيه الصالح وروح قدسه من الآن وإلى الأبد. آمين.

الرسالة الثامنة عشرة

لأولاده الرهبان

يعرفهم أنهم إذا بلغوا إلى المناظر الإلهية والإعلانات،
أن يحترسوا من المناظر الشيطانية لئلا يضلوا بخداعاتهم
الكاذبة وتتعظم قلوبهم؛ ويحثهم على الدوام في الطاعة.

١ - اعلّموا، يا أولادي الأحباء، أنه من البدء، لما حادت النفس عن
الوصية، حصلت المخالفة. وبذلك المخالفة صارت جميع النفوس يمضي بها
إلى الجحيم، كما قال الرسول: «إنه بآدم الأول كان الموت» (١ كو
١٥: ٢١-٢٢). وتحنّ الإله الكلمة، وتجسّد منا بسرّاً لا يُدرَك، وأكمل كل
التدبير لخلاصنا. فنزل إلى الجحيم وسباه سبيّاً واجتذب منه كل النفوس
المحبوسة فيه، وخلصها من سلطان الشيطان. وحفظ بأمره - لا بسلطان
الشيطان - غير المطيعين في الظلمة، إلى يوم الحكم الرهيب. وأصعد الذين
بإرادتهم قد أطاعوا وسمعوا وعملوا بالأوامر الإلهية، إلى السماء حيث
الفردوس.

٢ - وقد كان سبب إصعادهم إلى السماء هو تلك النار غير المرئية، التي
هي حرارة الأعمال الصالحة، التي اشتعلت في قلوبهم. وأنا لا أعرفكم هذا
فقط، بل وماذا تشبه هذه النفس التي سكنتها نار الله؛ إنها تشبه طيراً ذا
جناحين يطير بهما ويعلو مرتفعاً في جو السماء، لأن الطيور من دون جميع
المخلوقات هي التي خُصّت بالأجنحة. وأجنحة نفس المتعبّد للرب هي قوة

نار الله التي يمكنها أن تطير بها إلى علو السماء. فإذا عُذمتُ النفس تلك الأجنحة لا تبقى لها استطاعة أن ترتفع إلى الجو، لكونها فقدت قوة تلك النار. فتبقى مثل طير قد نُزع عنه جناحه وصار لا يستطيع الطيران.

وأيضاً تُشبه نفس الإنسان بالطير، لكون الحرارة هي سبب وجوده في العالم. لأن البيض ما لم يحتضنه الطائر في كل وقت، فلا يمكن أن تخرج منه فراخ حيّة، لأن حياتها لا يمكن أن توجد إلا في الحرارة. ولهذا قال الرب في الإنجيل المقدس: «يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم من مرة أردتُ أن أجمع بنيك، كما يجمع الطائر فراخه تحت جناحيه؟» (مت ٢٣: ٣٧)

فإذ قد فهمتم، يا أولادي الأحباء، تشبيه نفس من يعبد الله بالطير الذي أصل وجوده هي الحرارة، فلا تدعوا قوة هذه النار تنزع منكم. لأن حروباً كثيرة كائنة لكم من الشيطان بسبب هذه النار المُعطاة لكم من الرب، لكي ينزعها منكم. لأنه يعلم أنه لا قوة له عليكم ما دامت هذه النار معكم وفيكم.

٣ - فجاهدوا، إذن، قبالتة، واعرفوا خداعه وحيله؛ لأنه يخفي مرارته في الخلاوة حتى لا تظهر، ويُصور لكم أشياء كثيرة أنها حسنة، وهي ليست كذلك، لئيميل قلوبكم إليه بحيله المتشبهة بالحق. فهذه هي صناعته دائماً، أن يقاوم بكل قوته كل النفوس المتعبدة لله تعبدًا حسناً. وهو يلقي بأوجاع كثيرة مختلفة في النفس ليُطفئ تلك النار التي تقيم الفضيلة فيها. فأول ذلك، راحة الجسد وما يختص به. فإذا رأى الشيطان أنه لا يُطاع ولا يُقبل أمره في شيء منها، فإنه يأتي بجِلٍّ أخرى في صورة البر. فيظهر «كشبه ملاك نور» (٢ كو ١١: ١٤)، كما قال بولس الرسول؛ ثم بأشياء أخرى كثيرة أعظم

من هذه لئيميل قلوبهم إليه. فإذا رآهم أيضاً متحفظين من هذه الأخرى ولا يقبلونها منه ولا يسمعون له مطلقاً، فإنه حينئذ يولي عنهم مخزياً. وعند ذلك يسكنهم روح الله.

فإذا سكن روح الله فيهم، فإنه يريحهم في جميع أعمالهم، ويُحَلِّي لهم حمل نير الله، كما كُتب في الإنجيل: «احملوا نيري عليكم» (مت ٢٩: ١١). ويصيرون ولا يتعبون قط، لا في عمل الفضائل، ولا في الخدمة، ولا في سهر الليالي. ولا يغضبون من شتيمة الناس، ولا يخافون البتة من إنسان ولا من وحش ولا من غلاء ولا من جان، لأن فرح الله معهم ليلاً ونهاراً.

٤ - وهذا الفرح يرَبِّي عقولهم ويغذيها. لأن النفس تترَقَّى دائماً بهذا الفرح، وتستعد به، وبه تصعد إلى السماء؛ كما أن الجسد قوامه وثباته بالخبز والماء وبما شابه ذلك، من بداية حياته إلى نهايتها. إننا نرى الطفل يترَبَّى بلبن أمه، ثم بالطعام الرطب، وبعد ذلك بما اتفق له يوماً فيوماً؛ وهكذا يتقَوَّى ويجسر قلبه على أعدائه المقاومين له. فإن لحقه مرض يمنعه من الاعتداء، فإن أعداءه يقوون عليه من كل جهة ويغلبونه، ولا يمكنه أن ينال الصحة ويُشْفَى من مرضه ويغلب أعداءه إلا بملازمة الطبيب إياه ومعالجته له. فهكذا نفس الإنسان، إذا لم يكن فرح الله فيها، فإنها توجد مريضة ومطروحة بجراحات خبيثة. فإذا هي اجتهدت في طلب إنسان خادماً لله وعارف بالطب الروحاني، وتمسَّكت به، فإنه يشفيها من أوجاعها، فتقوم دفعة أخرى، ويعلمها أمور الله. وهكذا تستعيد ذلك الفرح الذي هو طعامها، وحينئذ تقدر أن تضاد أعداءها الذين هم الأرواح الشريرة، وتغلبهم وتدوس كل مشوراتهم، وتكتمل بالفرح.

٥ - فالآن، يا أحبائي، إذ قد علمتم هذا، تحفظوا من مشورات

الشیطان الرديئة. لأنه يأتي بصورة من يقول الحق ليخدع ويغطي على من يقبله. فإذا أتاكم بشبه ملاك النور فلا تصدّقوه ولا تسمعوا منه؛ لأنه يصطاد المؤمنين بأساليب تبدو حسنة وهي ليست كذلك. والذين لم يدركوا الكمال بعد، لا يعرفون حيل الشيطان هذه ولا ما يلقيه فيهم كل وقت. أما الكاملون الذين درّبوا حواسهم، وعرفوا تمييز الخير من الشر (عب ١٤:٥)، فهؤلاء لا يقدر العدو أن يُطغيهم. أما المؤمنون الذين لم يكملوا (بعد)، فإذا لم يحترسوا لذواتهم فإنه يخدعهم بطعامه الطيب في مظهره وهو ليس بطيّب، ويجتذبهم كما يجتذب الصياد السمكة بعد ما يغطي رأس الصنارة بالطعم. فالسمك لكونه لا يعلم بالصنارة المستورة بالطعم، يتقدم ويلع الطعم، فيؤخذ عاجلاً وبسهولة. فافهموا هذا، أن السمك لو علم أنه يُؤخذ بذلك الطعم، فإنه كان ينفر منه ولا يقربه أصلاً. هكذا، كما قلنا عن المؤمنين غير الكاملين، فالعدو يصيدهم بالأسباب التي تشبه الحق، كما يقول سليمان الحكيم إنه: «قد يوجد طريق يُظنُّ بها أنها مستقيمة وآخرتها تؤدي إلى أسافل الجحيم.» (أم ١٦: ٢٥)

ومكتوب أيضاً في عاموس النبي: «يا عاموس، ماذا تصنع هنا؟ فقال: إني أرى شبكة لصيد الطير» (عا ٢: ٨). ومعلوم أن الطير، لفزعه من أن يؤخذ في الأرض، فهو يتعالى في الجو ويصنع له مكاناً لراحته ورقاده. فإذا رقد يكون بلا هم كونه لا يصل إليه أحد فيمسكه. لكننا نرى الصياد يتحايّل ويأتي تحت مكانه، وينصب له شبكته ويخدعه بالطعم، وبذلك ينزل به من ذلك العلو ويقتنصه. والشیطان يفعل هكذا، ويصيد المؤمنين غير الكاملين بحيلة التي هي شبيهة بالحق وهي ليست كذلك، ويُنزّلهم من علوهم.

لأنه هكذا فعل (الشیطان) لما اختفى في الحية وقال لحواء: «إنكما إذا

أكلتما من الشجرة تصيران آلهة وتنفتح أعينكما» (تك ٣: ٥). فلما سمعت حواء هذا الكلام، مال قلبها إليه وظنّت أنه حق، لأنها لم تفحصه. فلما أكلت وأطعمت آدم، أصابهما الذل العظيم وسقطا كلاهما من علوّهما.

٦ - هكذا يفعل الشيطان بالمؤمنين الذين لم يدركوا الكمال بعد عندما لا يفرّقون بين الخير والشر، بل يتبعون أهويتهم ويقنعون برأيهم، ولا يرجعون ليتعلموا من آبائهم الذين قد كملوا وميّزوا بين الخير والشر، ويظنون أنهم قد صاروا كاملين ومباركين وحدهم مثل آبائهم. فهؤلاء، يا أولادي الأحباء، يشبهون تلك الطيور التي صنعت أوكارها في الجو وهبطت إلى الأرض، فاقتنصها الصيادون بالحيل المخادعة. وهذا يكون هؤلاء بسبب اتكالمهم على ذواتهم وعملهم مشيئاتهم وتكميل إرادتهم، وعدم طاعتهم واستماعهم لآبائهم. فإن الشيطان حينئذ يأتي عليهم بهذه المناظر الخادعة، ويملأ قلوبهم بالكبرياء. فهو يريهم في الليل أحلاماً ويحققها لهم نهاراً ليضلّهم. وليس هذا فقط؛ بل ويأتي لهم بأنوار في الليل، حتى أن مواضعهم تضيء؛ ويصنع مثل هذه أشياء كثيرة وعلامات لا نستطيع أن نأتي عليها ولا نكتبها واحدة فواحدة. وكل ما يصنعه لهم هو لكي يُطَيّب قلوبهم أنه ملاك الله فيقبلونه إليهم. وعندما يقبلونه بهذه الصفة، فإنه عاجلاً يهبط بهم من علوّهم - مثلما ذكرنا عن تلك الطيور - لسبب روح الكبرياء التي تمّلكت عليهم. ويجعلهم يظنون أنهم صاروا عظماء وأجلاء في الروحانية أكثر من كثيرين، فلا يرجعون يسمعون من آبائهم. وهكذا يتم عليهم المكتوب: «إنهم عناقيد زاهرة قاسية (أي مُرّة)» (تث ٣٢: ٣٢)، وهم في الحقيقة كذلك، لأن التعلّم من الآباء صار صعباً عليهم لظنّهم أنهم قد عرفوا كل الأشياء.

٧ - فيا أولادي الأحياء المباركين، افهموا ما قد قلته لكم؛ فإنكم لا تقدرون أن تتقدموا وتنمووا بالأكثر، ولا تكملون ولا تعرفون أن تميزوا بين الخير والشر، إذا لم تسمعوا تعليم آبائكم الكاملين. لأن آباءنا هكذا صنعوا باستماعهم لآبائهم وتعليمهم منهم، فتقدموا ونمو صاروا معلمين، كما هو مكتوب في حكمة يشوع بن سيراخ : «تعلموا من آبائكم، لأنهم قد تعلموا من آبائهم». (ابن سيراخ ٩:٨)

فيجب عليكم، يا أولادي الأحياء، أن تمثلوا بهؤلاء الذين أطاعوا آباءهم وسمعوا لهم في كل شيء، وقد علمهم آباؤهم جميع أعمال الله التي تعلموها من آبائهم، وهم أيضاً صاروا معلمين لبنينهم المؤمنين الطائعين. لأن إسحق أطاع إبراهيم، ويعقوب أطاع إسحق، ويوسف أطاع يعقوب، وأليشع أطاع إيليا، وبولس أطاع حنانيا، وتيموثاوس أطاع بولس. فهؤلاء وأمثالهم من القديسين أطاعوا آباءهم وأكملوا إرادتهم بتكميلهم الطاعة لهم في كل شيء؛ وعرفوا الحق وتعلموا البر، واستحقوا أخيراً روح الله. عند ذلك صاروا ينطقون بالحق في كل شيء، كما هو مكتوب في حزقيال النبي: «إني جعلتك مدبراً لبيت إسرائيل». (حز ١٧:٣)

فالآن، يا أحبائي بالرّب، المستقيمين بقلوبهم، إن أردتم أن تأتوا إلى قدام وتنمو بزيادة وتصيروا غير مضطربين بقلوبكم ولا تقدر الشياطين أن تهزأ بكم في شيء، فاسمعوا من آبائكم وأطيعوهم، وأنتم لا تسقطون.

٨ - وأنا أعلمكم عملاً آخر يُثبِت الإنسان من البداية إلى النهاية؛ وهو أن يحب الله من كل قلبه ومن كل نيّته، ويتعبّد له. وعند ذلك يعطيه الله قوة عظيمة وفرحاً، وتحلّو له جميع أعمال الله مثل الشهد. وهكذا أيضاً كل أتعاب الجسد، والهذيد والسهر، وحِمل نير الرب؛ يصير عليه خفيفاً حلواً.

ولأجل محبة ربنا للبشر، يُطْلَق على الإنسان أشياء مضادة لتلك، حتى لا يتعظّم بل يثبت في الجهاد ويزداد في النمو. فعوضاً عن القوة يجد ثقلاً وضعفاً، وعوضاً عن الفرح حزناً، وعوضاً عن الخلاوة مرارة. وأشياء كثيرة مثل هذه يصاب بها محب الله. ولكنه يتقوى كثيراً في جهادها ويغلبها. فإذا غلبها فإن روح الله يكون معه في كل شيء ويقوّيه حتى لا يخاف البتة من أى شيء رديء.

وإني أسأل سيدي، أن يعطيكم هذه النعمة لأجل طاعتكم ويحفظها لكم، الذي له مع أبيه وروح قدسه التسبيح والتقديس من جميع الناطقين إلى الأبد. آمين.

الرسالة التاسعة عشرة

لأولاده الرهبان

يُعرفهم أن الذين وصلوا إلى الكمال وقَبِلوا
الروح القدس لا بد أن تُطلق عليهم قتالات
أصعب من الأولى، لُشِبَّت لهم النعمة ويزدادون
فى كماهم وينالون البركة الأخيرة.

١ - اعلّموا، يا أولادي الأحباء بالرب، أن الروح القدس أزلي سرمدي
يفوح رائحة زكية حلوة لا توصف بلسان، كما قيل: «مَن هم الذين عرفوا
لذة الروح وحلاوته إلا الذين استحقوا أن يحل فيهم»؟

٢ - وهذا معلوم، أن كثيرين لا يستحقونه؛ لأن روح التوبة لا يسكن
فى نفوس التائبين إلا بعد أتعاب كثيرة جداً. فإذا سكن فيها يسلمها للروح
القدس، والروح القدس يحل فيها.

٣ - وقد نرى، يا أولادي الأحباء، أن فى هذا العالم أشياء تشابه هذه،
وهي أن حجر الجوهر لا يُقتنى إلا بتعب كثير؛ ولا يجده أحد فى المدن ولا
فى القرى، بل فى بيوت الملوك فقط. هكذا أيضاً الروح القدس لا يسكن فى
نفس متكبرة، بل فى نفوس المتواضعين الذين أفكارهم جميعها فى الكمال.
فإذا سكن هذا الروح فى هؤلاء، فإنهم يرسلون للرب شكراً عظيماً لأنهم
استحقوا حلول الروح القدس فيهم، كما استحق لاوي وقدم للرب شكراً

عظيماً قائلاً: «أُباركك يا رب يا مَنْ علّمتني بالروح الذي أعطيته لعبيدك»، كما قال أيضاً: «مبارك أنت، يا رب، لأنك أعطيت لقديسيك كرامة أفضل من كل الغنى، وإني لا أستطيع أن أدرك عِظَم غِنَى الروح الذي أنعمت به على قديسيك».

وهذا الروح، يا أولادي الأحباء، لما طلبه القديسون وجدوه. وهو الحجر الحقيقي الذي ذكر في الإنجيل المقدس: «أن إنساناً تاجراً كان يطلب الجواهر الحسنة، فوجد دُرَّة كثيرة الثمن، فمضى وباع كل ما له واشتراها» (مت ١٣: ٤٥-٤٦). ومكتوب أيضاً أن: «كنزاً مخفياً في حقل، وجده إنسان فخبأه، ومن فرحه مضى وباع كل شيء له واشترى ذلك الحقل» (مت ١٣: ٤٤). هكذا القديسون، يا أحبائي، في كل الأجيال، عندما وجدوا هذا الروح وسكن فيهم، قدموا للرب شكراً عظيماً. فالروح القدس لا يسكن إلا في نفوس مثل هؤلاء الطوبانيين، وهو يكشف لهم أسراراً عظيمة، ويعطيهم فرحاً وراحة لقلوبهم في هذا العالم، ويجعل ليلهم مثل النهار.

٤ - وإذ قد أعلمتكم، يا أولادي الأحباء، بعض أفعال هذا الروح القدس، أحب أن أعرفكم أيضاً قتالات الروح الخبيث. فاعلموا إنني منذ أن فارقتكم سهّل الرب طريقي إلى أن وصلت إلى مسكني، وثبّت في وحدتي خارجاً عن الجماعة، بمعاودة الروح القدس في الخفاء والظاهر. وأنا أودّ دائماً أن تكونوا بالقرب مني، لكي أعرفكم ما يكشفه لي الروح القدس في كل وقت، لأنه مكتوب أن: «غِنَى الرب يساعد الحكيم»؛ وما هي التجارب التي حصّلت بعد ذلك لمسكنتي؟

٥ - لأن التجارب، في الحقيقة، لا تأتي بقوة إلا على الذين قد قبلوا الروح القدس، لأنهم عند قبولهم الروح تأتي عليهم التجارب من الشيطان

لكون الروح يطلقه عليهم. فالشيطان ليس له سلطان أن يثقل على أحد المؤمنين، إلا إذا أُعطي ذلك من جهة الروح القدس.

٦ - وربنا يسوع المسيح، لما أخذ ما يختص بنا، صار مثلاً لنا، لكي نعلّمنا كل حين أن نعرف الحق. فهو لما اعتمد، حلّ الروح القدس عليه مثل حمامة؛ ثم أخرجه الروح القدس إلى البرية ليُجرب من إبليس. ولما جرّبه بكل التجارب لم يقوَ عليه، كما كُتب في إنجيل لوقا من أجله هكذا: «فلما أكمل إبليس كل التجارب مضى عنه إلى حين، ورجع يسوع إلى الجليل بقوة الروح» (لو ٤: ١٣). فهكذا كل الذين ينالون الروح، ويجاهدون ويغلبون التجارب؛ فإن الروح يقويهم ويعطيهم قوة عظيمة بزيادة، ويرفعهم ويحفظهم من كل الأشياء.

فيا أولادي الأحباء، كنت أشتهي أن تكونوا بقربي لتعرفوا تجربتي الأخيرة، التي تشبه تجربة ربنا يسوع المسيح الأخيرة. لأنه لما أكمل تدبيره وعرف بانتقاله، قال: «يا أبتاه، إن كان ممكناً، أن تعبر عني هذه الكأس؛ ولكن ليس كإرادتي بل كإرادتك» (مت ٢٦: ٣٩). وكان ذلك بصلوات وطلبات، وليس هو خوراً أو خوفاً أو عجزاً؛ بل لتعليمنا أيضاً، كما كانت تجربته الأولى تعليماً لنا. لأنه بإرادته أتى من السماء دون أن يفارقها، وحلّ على الأرض وأخذ شكلنا ليخلصنا به بما صنعه فيه من التدابير والتعاليم، ومات عنا وقبر وقام وخلّص المأسورين في الجحيم وصعد إلى السموات حيث كان أولاً.

فانظروا، يا أولادي الأحباء، إلى محبة الله الكلمة، أنه أضعنا من هوّة الجحيم إلى أعلى السموات. لأن السماء العليا غير السماء المرئية، غير الجو الذي هو الهواء الذي يهبُ بخفته، وجو الهواء غير هذه الأرض الكثيفة التي نحن

كائنون الآن فيها وعمّاً قليل ننتقل منها. واعلموا أن أعمال السماء هي غير أعمال الأرض، وأن نَمَّ صقع آخر أثقل من هذه الأرض الكثيفة، صعب جداً ومظلم، وليس فيه شيء من النور ولا راحة، وهو الذي يدعى الجحيم. فالتجربة التي أنت علىّ أخيراً، يا أولادي، كادت أن توصّلني إلى الجحيم بعينه. لأن أعداء الخير أرادوا أن يلقوني فيه بكثرة تحيلهم؛ وعن هذا كان تعبي وجهادي وضيقتي واضطرابي. لكني، أنا المسكين، أشكر إلهي وأمجّده، هذا الذي أنا أحدمه بكل قلبي من صغري إلى الآن وأسمع له، لأنه لم يتخلّ عني بل عضّدني وخلصني من ظلمة الأعداء، وردّني إلى رفعتي الأولى مرة أخرى، كما خلّص آدم وأولاده الصالحين وردّهم إلى رتبهم الأولى. لأنه مكتوب: «صعد إلى العُلا وسبى سبياً وأعطى الناس مواهب.» (مز ٦٧: ١٩، أف ٤: ٨)

٧ - وأُعَلِّمُكُمْ أيضاً أن تجربتي الأخيرة تشبه تجربة يوسف الأخيرة. لأن يوسف الطوباني البار، لما جُرّب بتجارب كثيرة لم يضطرب؛ وفي الآخر لما أُلقي في السجن الذي هو شبه الجحيم، اضطرب لهذه التجربة. لكن ربنا بتحنّنه، لما رأى حُسن جهاده وصبره، أعطاه كرامة جزيلة وصيّره ملكاً؛ ولم يُعد من ذلك الوقت يُجرب أصلاً.

فحقاً، يا أولادي المحبوبين، إنني لم أخف عنكم مقدار ما كنت فيه من التجربة التي خلصني سيدي منها. وأنا متحقق أن ذلك بصلواتكم وطلباتكم، وتذكاركم لمسكنتي. لأنكم تعبتُم معي كثيراً، وسيعطيكم الرب نعمة الروح والخلاص كما أعطى لمسكنتي. لأنه قال لتلاميذه: «أنتم الذين صيرتم معي في تجاربي، أنا أعدُّ لكم الملكوت كما وعدّ أبي، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي» (لو ٢٢: ٢٨-٣٠). وافهموا يا أولادي

الأحباء، فحوى هذا الكلام: إن الذي يشترك مع المسيح بطاعته له، فإنه يشترك معه في مواضع الراحة؛ والذي يشترك معه في الهوان يشترك معه في المجد. لأن كل من يقبل الأتعاب والشتائم والتعيير والهوان، هو الذي يتمجد. لأنه مكتوب أن الابن الصالح هو الذي يرث أتعاب آبائه وبركتهم؛ أما الابن الرديء فإنه يرث اللعنة.

٨ - واعلموا، يا أولادي الأحباء، إنني بعد كتابة هذه الرسالة، حرّكتني الروح أن أكتب عن الساروفيم الذي رآه حزقيال النبي (حز ١: ٤)، الذي هو مثال لنفوس المؤمنين الذين يجاهدون وينالون الكمال. هذا كان له ستة أجنحة وهي مملوءة عيوناً؛ وله أيضاً أربعة وجوه ناظرة إلى الأربع جهات. أحد الوجوه يشبه وجه إنسان، والآخر وجه ثور، والآخر وجه أسد، والآخر وجه نسر. أما بقية ما ذكره النبي، فليس هذا وقتَه أن أكتب عنه إليكم. لكنني أشرح لكم شيئاً يسيراً من تفسير ذلك، وإذا أتيت إليكم بمعونة الله شرحت لكم ما تبقى منه مشافهة، لأنني لا أستطيع أن أكتب لكم عنه.

فاعلموا أن الوجه الأول للساروفيم - وهو وجه إنسان - هو رمز للمؤمنين الذين في العالم العاملين بما يختص بهم من الوصايا. فإذا خرج أحد أولئك إلى شكل الرهبنة، فقد تشبّه بوجه الثور؛ لأنه يعمل ويجتهد في الوصايا التي للرهبنة والقتال المحسوس. فإذا أكمل (واجبات) المجمع بحسب تربيته وخرج وسكن البرية وتفرّد في الوحدة لقتال الشياطين غير المنظورين، فقد تشبّه بوجه الأسد، الذي هو سلطان الوحوش البرية. فإذا غلب الأعداء غير المنظورين وتسلّط على الأوجاع كلها ومَلَكَهَا، فإنه يرتفع بالروح القدس، وينظر المناظر الإلهية ويتشبه بوجه النسر؛ ويتم عليه المكتوب:

«يجدُّ مثل النسر شبابك» (مز ١٠٢: ٥). حينئذ يميز عقله ما يأتيه من جهاته الست؛ فيتشبّه بتلك الستة الأجنحة المملوءة عيونا، ويصير سيرا في روحانياً، ويرث الميراث الأبدي بطاعته لآبائه الروحانيين.

٩ - وأنا أعلم، يا أولادي الأحباء، أننا نحن جميعنا قد قبلنا قوة من الرب (لسبب) طاعتنا لآبائنا وبركتهم لنا. وأنتم أيضاً، لطاعتكم وخدمتكم تقبلون قوة من الرب، وترثون بركة آبائكم. وحقاً أقول لكم إنني ذاكر إياكم على الدوام، وناظر إليكم بالروح، مثل الوالدة الحنون الشفوق على أولادها الأطفال. وفي مرات عديدة أراد سيدي أن يرخصني من أتعاب هذا الجسد ويأخذ نفسي إليه، ولكن لاستراحة روح الرب عليكم، قد ترك روحي المسكينة في جسدها لتربيتكم، وقال لي: "إنك والدة حسنة ومرية صالحة، وقد تركتك لتربي أولادك حسناً". والآن، يا أولادي المباركين، اقبلوا بركتي الأخيرة.

١٠ - ها هوذا كتاب أبيكم وبركته إليكم، فاحفظوه لأنه الميراث الحقيقي وتوريث الآباء الروحانيين (لأبنائهم)، لأنهم لا يورثون أبناءهم ذهباً ولا فضة ولا ما شاكلهما، بل الميراث الحقيقي. أما الآباء الجسدانيون فهم الذين يورثون أبناءهم الذهب والفضة وما شابه ذلك. فانظروا إلى رؤساء الآباء، كيف كانوا أغنياء جداً بالذهب والفضة وما إلى ذلك من الغنى الجسداني، ولم يذكر عنهم أنهم ادّخروا لأبنائهم شيئاً من هذه، لأنها زمنيّات زائلات. لكنهم ورثوهم تلك البركة الحقيقية الدائمة سرمداً التي تورث الراحة السمائية، وهي التي تبقى مع الإنسان إلى الأبد.

واعلموا أن هذه البركة التي أعطها أبوكم لكم، مثل البركات الأبوية، هي خلاص بالرب وبروح الحق. وليعطكم ربنا هذا إلى أن تنتقلوا من هذا العالم الزائل وترثوا ذلك الدائم، بشفاعتنا (القديسين) أجمعين. آمين.

الرسالة العشرون

وهي آخر رسائله، كتبها لتلميذه الحبيب بنودة الذي كان رئيساً على أولاده الرهبان، ولكل من هو تحت طاعته، ولكل الذين يطلبون طريق الرب. ويؤكد عليهم أن يشبوا في أماكنتهم ولا ينتقلوا منها لكي ينالوا البركة الأخيرة. ويعرفهم فيها أنواع قتالات الشياطين، وأنواع معونة الرب لمن يصبر.

١ - حبيبي بالرب المكرّم بنودة، السلام لك.

قبل كل شيء، أنا أسال من أجل خلاصك، وأيضاً من أجل خلاص كل النفوس الطائعة لك الطالبين معك باسم الرب، وكل الذين يسرون معك بالسلام، من أجل ربنا يسوع المسيح.

إن الذين ينيحون أنفُس آبائهم، الرب يسوع المسيح يريحهم في ملكوت السماء. واعلموا جميعكم أن كل من ينيح إنساناً واحداً من عبيد الرب، ولو بكأس ماء بارد، فأجره لا يضيع، كما قال ربنا بضمه الطاهر: «مَنْ سقى أحد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد فقط باسم تلميذ، الحق أقول لكم، إن أجره لا يضيع» (مت ١٠: ٤٢). وقال أيضاً، من أجل الذين يُجزنون أنفُس التلاميذ ويعثرونهم برداءتهم: إن «مَنْ شَكَّ أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فخير له لو عُلق في عنقه حجر الرّحى ويُغرّق في البحر» (مت ١٨: ٦). وقال أيضاً: «بالكيل الذي به تكيلون يُكال لكم» (مت ٧: ٢). وافهموا

هذا، يا أحبائي، أن الرب لا يحب شيئاً ممّاً على الأرض أكثر من تلاميذه وصانعي إرادته؛ ويدحض كل من يهينهم، لأن كل ما يصنعه بعبيد الله فيه يصنع، خيراً كان أم شراً. لأنه قال: «مَنْ قَبِلَكُمْ فَقَدْ قَبِلَنِي» (مت ١٠: ٤٠)؛ وقال أيضاً: «إذا لم تفعلوا هذا بأحد هؤلاء الصغار فيني لم تفعلوا». (مت ٢٥: ٤٥)

٢ - فيا أحبائي، احترسوا من أن تستهينوا بأحد من الناس، لأن أصل هذه (الاستهانة) هو الكبرياء التي أوجبت على العالم غضب الله. لذلك قال إشعياء النبي: «هوذا يوم رب الصباؤوت يأتي على كل المتعظمين بقلوبهم والمستهزئين» (إش ٢: ١٢). فانظروا، يا أحبائي، عِظَم هذا الحزن الذي يصيب المتعظمين. فيجب علينا نحن أيضاً أن نبكي على ذواتنا بحرقه قلب وكآبة، لأنني رأيت رهباناً كثيرين وخداماً قد سقطوا في هذا الوجد بسبب ظنهم الفاسد، إذ قالوا عن ذواتهم: إننا نحن شيء عظيم وليس أحد يشبهنا. وحقاً، يا أحبائي، أقول لكم إنه ليس فيهم سوى الكبرياء والاستهانة بالناس، والبغضة والغيرة الرديئة والمخاصمة، ولا يشتهون أن يندموا ويرجعوا بقلوبهم. وهذه وأمثالها لم تدعهم يميّزون بين الخير والشر، وبين الحلاوة والمرارة. لأن الأرواح الخبيثة التي في الجو جعلتهم ييكون وقت الضحك، ويضحكون وقت البكاء، وتَمَّ عليهم قول الكتاب: «ملعون كل مَنْ يجعل الجيد رديئاً والردى جيداً، وَمَنْ يجعل المرَّ حلواً والحلو مرّاً» (إش ٥: ٢٠). فهؤلاء كان يجب عليهم أن يسمعوا قول القديس يوحنا القائل: «لا تُصدّقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله.» (يو ١: ٤)

فيجب علينا نحن أن نبكي على هؤلاء الثابتين في هذه الشرور المذكورة كل زمان حياتهم، تلك التي يحبونها أكثر من محبتهم للطعام الضروري، ولا يسمعون

تعليم الله الحق، بل يتمسكون بتلك التعاليم الشريرة التي لأرواح الخبث.

٣ - وهذه هي تعاليم الله: الطهارة، السلام الدائم الذي بلا تغيير المملوء من الرحمة، وبقية الأثمار الحسنة الحقيقية التي كمالها البركة. فاحرصوا أنتم، يا أحبائي، على اقتناء هذه التعاليم التي للروح التي بها تحيا نفوسنا، وبها نقبل الرب في ذواتنا، لأنها هي الطريق الآمنة التي لا يوجد فيها لص ولا شيء رديء.

واعلموا أنه بغير طهارة الجسد والقلب، لا يستطيع أحد أن يكون كاملاً أمام الله؛ وذلك كما مكتوب في الإنجيل المقدس: «طوبى للطاهرة قلوبهم، فإنهم يعاينون الله» (مت ٥: ٨). فالكمال، إذًا، يتولّد من طهارة القلب. لأن القلب فيه النوعان: أعني الخير الطبيعي، والشر غير الطبيعي الذي يولّد أوجاع النفس التي هي النميّة والحسد والهزء وبقية الشرور. أما الخير فهو مولّد معرفة الله وخلاص النفس من تلك الأوجاع؛ ولذلك قال النبي داود: «يا نفسي، باركي الرب ... الشافي جميع أوجاعك». (مز ١٠٢: ١-٣)

فإذا سعى الإنسان، يا أحبائي، بعلم شر، وتوكّل على الرب باستقامة، وهرب من الأشياء الرديئة ببكاء وكآبة وتنهّد وصوم وسهر ووداعة وطلبات كثيرة إلى الله، فإن الرب بصلاحه يعضده ويخلصه من جميع أوجاع النفس، كما قال داود النبي: «احكم لي يا الله، فإنني بالتواضع مشيتُ وعلى الرب توكلتُ، فلا أزعج». (مز ٢٥: ١)

٤ - وكما أعلمتكم، يا أحبائي، أنه بهذه الأعمال يكون شفاء النفوس من الأوجاع، أنا أيضاً أعلمكم أن كثيرين أقاموا كل زمانهم في الرهينة والبتولية ولم يتعلموا التعليم الطاهر، لأنهم تركوا تعليم آبائهم وتمسكوا

بشهوات قلوبهم. ولذلك قويتْ عليهم الجان الخبيثاء واللصوص المردة الذين في الجو، وصارت ترشقهم بالسهم في الخفاء ليلاً ونهاراً، حتى تجعلهم لا يشبتون في مجامعهم؛ وتُشعل قلوبهم بالكبرياء والمجد الباطل والغيرة الرديئة والنميمة والغضب والحقق والمحارنة (أي العناد)، وأوجاع أخرى كثيرة. وهذه وأمثالها تصنعها الشياطين لأنهم يقصدون موتنا لا حياتنا.

وهذا الكلام الذي أعلمتكم به، يا أحبائي، ليس من عندي بل يذكره يعقوب الرسول قائلاً: «إن كانت فيكم غيرة مُرَّة وكان في قلوبكم شقاق، فلا تفتخروا ولا تكذبوا على الحق، لأن هذه حكمة ليست نازلة من فوق لكنها أرضية نفسانية شيطانية» (يع ٣: ١٤-١٥). وأيضاً مكتوب في رسالة يوحنا الرسول: أن «مَنْ يصنع الخطيئة هو من الشيطان». (١ يو ٣: ٨)

وإذ قد علمتم، يا أحبائي، أن الثابتين في هذه الأفعال ليس للرب عمل فيهم، بل هم مشاركون للتعاليم الشيطانية ويُعدُّون مع الشياطين، لهذا فلنبكِّ على ذواتنا في وقت الحزن هذا الذي نحن فيه، ولنعرف أيضاً مقدار (عظمة) موهبة الروح القدس، ونصرخ مع القائل: «هلموا فلنسجد ونُخِرْ ونُبكِ أمام الرب الذي صنعنا» (مز ٩٤: ٦). ونقول أيضاً قوله: «خلِّصني يا رب، فقد فنيَ الطاهر وقلَّ الحق من بني البشر. تكلم كل واحد مع قريبه بشفاه غاشة وقلب ملتو» (مز ١١: ٣، ٢). ومن أجل هذا الكلام وما يأتي بعده، يحق لنا أن نبكي، لأنه قال: «الرب يبید الشفاه الغاشة والألسنة المتعظمة». (مز ١١: ٤)

٥ - واعلموا، يا أحبائي، أن هؤلاء هم الذين يُعدُّون مع العذارى الخمس الجاهلات، لأنهم أجازوا كل زمانهم بالجهل، ولم يلجموا ألسنتهم، ولم يظهروا عيونهم وأجسادهم من الشهوات، ولا قلوبهم من النجاسات

ومن أشياء أخرى تستحق أن نكي بسببها لأنها ليست ظاهرة. وكانوا
يقنعون (أي يكتفون) بلبس الصوف فقط الذي هو زيُّ البتولية لا غير.
ولأجل هذا لم تكن لهم لذة سَمائية، ولم ينوحوا على ذواتهم ولم يوقدوا
مصاييحهم. ولهذا لا يفتح لهم العريس، بل يقول لهم كما قال للعذارى
الجاهلات: «الحق أقول لكم إنني لا أعرفكم» (مت ٢٥: ١٢). ويقول لهم
أيضاً: «اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار المؤبدة، حيث البكاء وصرير
الأسنان.» (مت ٢٥: ٤١)

٦ - والآن، يا أحبائي، إنني لم أكتب إليكم هذه الرسالة إلا لطلبتي
خلاص نفوسكم، لكي تكونوا أحراراً وأمناء، وعروساً طاهرة للمسيح، لأنه
عريس كل النفوس الطاهرة، كما يقول الرسول بولس: «إنني خطبتكم
لرجل واحد، بكرًا نقيَّة، لأقربكم للمسيح.» (٢ كو ١١: ٢)

٧ - وأنا أعلم أنه قد أصابتكم حروب كثيرة، يا أحبائي، وبعمونة ربنا
الذي دبركم قد جزتموها واحدة فواحدة. لأن «الله صادق»، وهو الذي
يقوِّمكم ويقوِّى كل الذين يخدمونه، «حتى لا يدعكم تبتلون بأكثر ممَّا
تطيقون» (١ كو ١٠: ١٣). فاعلموا، إذاً، يا أولادي الأحباء، قوة التجارب
التي أصابتكم، وعِظَم الكرامات التي أعطيتموها من الله بسببها، واثبتوا فيما
يأتي عليكم أيضاً؛ لأن الذهب يُجرب بالنار عدة مرات ليظهر مختاراً بزيادة
التجربة. هكذا ربنا بصلاحه يُجرب الإنسان بتجارب كثيرة، ويسبكه مثل
الذهب المصفى (مل ٣: ٣) ويعلمه حرب القلب، حتى أنه لا يعود يفكر أو
يذكر ما جرى عليه من كثرة الشتائم والإهانات من الناس، ويكون أيضاً
بلا خوف من أفعال الشيطان؛ بل يتواضع أمام الله ويتوكل عليه، ويكون
دائماً مستعداً بالخير أمام الله، كما قال داود النبي: «قلبي مستعد يا الله،

قلبي مستعد؛ أُسَبِّح وأُرَتِّل في تمجيدِي.» (مز ١٠٧: ٢)

٨ - واعلموا أنه لا بد أن يكون لكم هذا، أن بعض إخوتكم يحزنونكم بالشتائم والتعير؛ بل إن شركاءكم في منازلكم (أي قلايكم) يهينونكم. فإذا أتت هذه عليكم، فاثبتوا ولا تخافوا ولا تحزنوا، بل اشكروا الرب على جميع ذلك. فبغيره، لَمَا كان لكم شيء من هذا؛ لأنه لا بد أن تأتي الحروب على خدام الله. وكل مَنْ لم يُمتَحَن من صلاح الله بالتجارب والأحزان والآتعب والشدائد حتى يتعلم كيف يقبني الصبر والخير، فلا يَقْبَل من الله الكرامة.

٩ - فالآن، يا أحبائي، اصبروا على الآتعب والأحزان التي تأتي عليكم. واشكروا الرب باتضاع عظيم لتزوا سرور أتعابكم، وفرحوا مثل المغبوبة سوسنة القوية في الحرب، التي قويت على شهوة الشيوخين مخالف في الناموس اللذين شهدا عليها زوراً وأوجبا عليها أتعاباً كثيرة، وبصبرها وثباتها رفعها الله في نهاية جهادها وأذلَّ أعداءها. وفرحون أيضاً مثل تكله، القوية بالروح، فإنها لم تخف من إهانة والديها لها، ولا من النار أيضاً ولا من المتوَلَّى عذابها، ولا من الوحوش الضارية؛ وأخيراً أعطاه الرب سرور القلب وجوائز أتعابها. فقرة إيمانها بالله أطفأت النيران وسدَّت أفواه الأسود الضواري، وأذلت جميع أعدائها. ومثل يوسف أيضاً، المتضع أمام الله والناس، فإنه لما حسده إخوته وأبغضوه وأرادوا أن يسفكوا دمه من كثرة الحسد لما رآوه مكرماً عند أبيهم، حرسه العناية الإلهية من القتل؛ لكنهم تسلطوا بالغيرة ورفعوا أيديهم عليه، وأخيراً باعوه عبداً. ثم إن امرأة سيده الذي صار له خادماً سببت له أتعاباً كثيرة حتى أنه طُرح في السجن. وقد كان غنياً وديعاً طاهراً جداً بغير دنس نفساً وجسداً. وهو بمعونة الرب له، لم يخف من تلك الضوائق جميعها بل صبر وتوكل على الرب. وأخيراً رفعه

الله وجعله رئيساً على مصر وجميع أعمالها. أما إخوته الذين حسدوه، فقد أذلّهم الرب بأجمعهم تحت رجليه.

١٠ - فهؤلاء الذين ذكرتهم ومن جرى مجراهم، يا أحبائي، لم ينالوا الكرامة من الله في أول جهادهم وتجاربهم، بل بعد أن امتحنهم وسبّكهم بالشدائد والأتعاب، وجعلهم يعرفون كيف يواجهون القتالات. حينئذ لما رآهم قد صبروا في الشدائد والأتعاب، وجعلوا الرب رجاءهم؛ أعطاهم كرامة لاهوته، وأذلّ مبغضيههم تحت أقدامهم.

وأنا، يا أحبائي، عندما أذكر جهاد هؤلاء وجوائزهم، تهلل روحي بالفرح والسرور، وأطلب عنكم بابتهاال. فاثبتوا أنتم بالصبر ولا تضعف قلوبكم في شدائدكم؛ بل اشكروا (الله) عليها لتنالوا المجازاة من الرب عنها.

١١ - وقد كتبتُ لكم هذه الكلمات، يا إخوتي، ولكل من يدعو باسم الرب، كي ما تكون لجميعكم السلامة والحق ومحبة الله، ومحبتكم بعضكم لبعض؛ ولكي لا تكون بينكم مشاجرة، أو نغمة، أو أفكار سوء، أو قلق، أو مقاومة، أو مضادة، أو غيرة رديئة، أو قلة طاعة، أو كبرياء، أو شتيمة للناس أو اهزاء بهم، أو فجور، أو محبة مجد باطل، أو بغضة، أو شهوة ثياب حسنة للجسد، أو عداوة بعضكم لبعض. وها مسكنتي تتضرع إليكم أن لا تدعوا شيئاً من هذه الأعمال عندكم في ذواتكم ولا بينكم في موضع سكناكم، لأن الجمع الذي تكون فيه هذه الأعمال، يكون غضب الرب حالاً فيه.

١٢ - واعلموا، يا إخوتي، أن أعمارنا في هذا العالم قليلة جداً. فاحرصوا فيه واجتهدوا، لئلا يتفق انتقالكم منه وأنتم حاقدون بعضكم على

بعض، فُتَحَسَّبُوا مع القاتلين، كالمكتوب: «إن كل مَنْ يبغض أخاه فهو قاتل نفس» (١ يو ٣: ١٥). وهذه الأقوال والوصايا ليست هي للربان فقط؛ بل ولجميع المؤمنين الذين يشتركون معكم في بيعة السيد المسيح الجامعة الرسولية.

١٣ - والآن، يا إخواني، فليغفر الواحد منكم لرفيقه كي ما يغفر الرب لكم، لأن الإنجيل المقدس يحثُّ على ذلك بقوله: «اغفروا يُغفر لكم» (لو ٦: ٣٧). وأَيُّ مَنْ ظَلِمَ منكم، فليقبل ذلك بفرح ويسلم الأمر إلى الرب، لأنه الحاكم العادل المجازي. وَمَنْ حصل منه ظلم لرفيقه فليسرع ويضع ذاته (أي يتواضع) قدام الرب ويتضرع لرفيقه كي ما يغفر الرب له. ولا تَدْعُوا، يا أحبائي، الشمس تغرب على غضبكم، كما يعلمنا الكتاب (قارن: أف ٤: ٢٦)، بل انزعوا من قلوبكم كل الأفكار الرديئة التي تهتمون بها أو تفكرون بها على بعضكم بعضاً، لكي تنحلَّ العداوة التي أصلها البغضة والحسد؛ لأن هذين الوجعين رديئان جداً ومرذولان عند الله والناس، ولا يجب أن يوجدوا في أحد من المؤمنين أو خدام الله. فيا أحبائي، إن كانت هذه الأشياء قد وُجِدَتْ بينكم فيما مضى، فمِن الآن احترسوا أن لا توجد عندكم ولا تَدْعُوهَا تتسلَّط عليكم.

١٤ - واعلموا أن أيام حياتنا يسيرة جداً، (ومع ذلك) فإنه يمكننا فيها الرجوع إلى الرب عن خطايانا، لئلا يدركنا انتقالنا من هنا إلى هناك ونحن في غفلتنا، ولا يمكننا حينئذ الرجوع إلى ههنا. لأننا نرى أن المتقلبين لا يرجعون إلينا؛ ونحن أيضاً لا ننتظر رجوعهم، بل ننتظر اللحاق بهم. وهذا هو المحتوم على جميع أهل العالم من الابتداء إلى النهاية.

ولهذا، يا أحبائي، يجب علينا أن لا نفتخر أحد بكثرة جهله ويقول: إنني قد قويتُ على رفيقي ولا أشفق عليه. فليعلم قائل هذا القول أو المُفكِّر فيه

أنه إنما قد جعل للموت قوة على نفسه فقط، فيكون ميراثه (في) موضع البكاء وصرير الأسنان والدود الذي لا ينام والنار التي لا تطفأ.

١٥ - وإذ قد علمنا هذا، يا أحيائي، فلنجاهد ما دمننا في هذا الجسد ونداور جراحات نفوسنا، قبل فراغ الزمان منا. ولتكن هذه الأقوال ثابتة في عقولنا لنعمل بها قبل مفارقة نفوسنا لأجسادنا. لأن ربنا، الحاكم العادل، يرسل خدامه ويقبضون على النفس ويفصلونها من هذا البيت الطيني. فكل الذين يوجدون في ذلك الوقت غافلين عن خلاصهم، فإنهم يُحفظون في الظلمة القصوى إلى ذلك اليوم المرهوب وتخرج عليهم القضية المرة. ويُسلمون إلى المعذنين القليلي الرحمة والسجانين الذين ليس عندهم رافة، المرتبين على حراسة تلك النار الممتلئة من الدود الذي لا ينام (قارن: ملوؤة من البرد والمهمير. والذين يُسلمون لهؤلاء القساة يطرحونهم في هذه المواضع البعيدة من الله لكي ينتقموا منهم.

عند ذلك يعجّون بالبكاء والصراخ والويل والولولة؛ فلا يسمعون لهم ولا يرحمونهم. لأن الرحمة قد بعدت عنهم إلى الأبد، لأنهم كانوا قليلي الرحمة في حياتهم، فلم يُطعموا جوعاً، ولا سقوا عطشاً، ولا آووا غريباً؛ عرياناً لم يكسوا، ومريضاً لم يعودوا، ومحبوساً لم يزوروا (قارن: مت ٢٥: ٤٢-٤٣)؛ ولهذا صارت لهم مجازاة بلا رحمة. وكانوا مع ذلك مملوئين من الخطأ والغش وعدم الطاعة للمعلمين والآباء المؤذنين؛ ولم يتربوا ولا يوماً واحداً، ولم يتخذوا لهم معلماً يطلب من أجلهم. ولم يشكروا على ما أعطوا من كثرة الغنى، وتركوا عنهم معرفة الرب هنا، وهو أيضاً لن يعرفهم هناك بل سيُسلمهم لأولئك القليلي الرحمة لينتقموا منهم في مواضع العذاب الذي لا انقضاء له؛

كمثل العبد الذي لم يرحم رفيقه في العبودية ولم يترك له المائة دينار القليلة بالقياس للربوات التي تركت له (قارن: مت ١٨: ٢٣-٣٤)؛ وكمثل العبد العاجز الكسلان الذي دفن فضة سيده (قارن: مت ٢٥: ١٨)؛ وكمثل الذي لم يوجد عليه لباس العرس (قارن: مت ٢٢: ١٢-١٣)؛ وكمثل العبد الذي يرفض وصية سيده، ويأكل ويشرب مع السُّكَّيرين ولا يشفق على أصحابه العبيد (قارن: مت ٢٤: ٤٩). فهؤلاء جميعهم إنما يُسلَّمون للعذاب وللقوم القليلي الرحمة، لأنهم كانوا هم أنفسهم بغير رحمة، كما هو مكتوب: «إن دينونة مَنْ لم يستعمل الرحمة تكون بغير رحمة.» (يع ١٣: ٢)

١٦ - فيا أحبائي - لكثرة إشفاعي عليكم - أكرر التضرُّع إليكم، أنا المسكين، أن نستفيق ما دمنّا في هذا الجسد، ونبكي على ذواتنا وتنتهد من كل قلوبنا، الليل والنهار، لننجو من العذاب المرّ والبكاء والتنهّد والكآبة التي لا زوال لها. فلا نضطجع ولا نسير في الباب الواسع والطريق الرحبة التي تؤدّي إلى الهلاك؛ والسالكون فيها كثيرون؛ بل بالأحرى ندخل من الباب الضيق والطريق الكربة المحزنة المؤدية إلى الحياة، والداخلون فيها قليلون، والذين يدخلونها هم الفعلة المحقّقون الآخذون جوائز أتعابهم بفرح، الوارثون الملكوت.

١٧ - فالذي استعدّ، يا أحبائي، لا يكسل عن الحصاد، لئلا ينتهي الموسم فلا يوجد مَنْ يبيع لمن يريد أن يبتاع، لأن هكذا قد أصاب العذارى الخمس الجاهلات كمّا لم يجدن من يشتري منه. عند ذلك صرخن وبكين قائلات: "يا رب، افتح لنا". فأجاب وقال لهن: «الحق أقول لكنّ، إنني لا أعرفكن» (مت ١١: ٢٥-١٢). وما أصابهنّ هذا إلا لكسلهنّ، لأن رب البيت إذا قام وأغلق الباب فلا يعود شيء ينفع، كما كُتب.

وأنا أعطيكُم مثلاً لذلك؛ لما دخل النوح السفينة، هو وبنوه ونساء بنيه

وسائر مَنْ معه، أخلق الرب باب السفينة، بسبب ما أتى به من ماء الطوفان على صانعي الشرور. ولم يفتح نوح باب السفينة، ولم يدع أولاده ينظرون إلى ذلك المنظر الرهيب الذي كان دينونة لأولئك الأشرار. ولا أيضاً جاء أولئك الأشرار بعد غلق الباب ليركبوا مع الأبرار. فصاروا من الجداء التي هي عن اليسار، حيث لا يمكنهم الدنو من الذين هم عن اليمين. وهكذا هلكوا هلاكاً بماء الطوفان، لأجل كسلهم وعدم طاعتهم، لأن نوح، في تلك المائة سنة التي بنى فيها السفينة، كان ينذرهم، فلم يطيعوه ولم يسمعوا منه، فهلكوا.

فالآن، يا أولادي المحبوبين، المهتمين بالسلام مع كل أحد، أطلب إليكم بنعمة الله أن تسمعوا مني، وحيث أنا أيضاً أسمع منكم. ولنسمع جميعنا من الرب القائل على لسان النبي: «مَنْ هو الرجل الذي يهوى الحياة ويجب أن يرى أياماً صالحة؟ أكفف لسانك عن الشر واصنع الخير؛ اطلب السلامة واتبعها!» (مز ٣٣: ١٣-١٥)؛ وبقية الكلام.

١٨ - هذا هو سروري، أنا والإخوة الذين عندي، أن نسمع بمسيحيتكم، وأن تكون سلامة الرب عندكم وبينكم. وأنتم تبنون عليها، في كل يوم وليلة، لتصيروا روحاً واحداً بمشيئة واحدة، وإيمان واحد، وشركة واحدة، ومائدة واحدة، لتدوم لكم السلامة.

ومنذ وصلتُ إليَّ رسالتكم وإلى الآن، أنا حزين القلب بسبب ما حدث بينكم من التعب بسبب قلة الإفراز مِمَّن يريد أن ينفرد بذاته وحده ويصنع إرادته وهو في الوسط (أي وسط الجماعة). فَمِنْ الآن، يا أحبائي، لا يكون هذا بينكم، بل كَمِّلُوا (أي اشتركوا في) خبز بيت السلامة بالاتفاق، لأنه غير واجب أن يُعطى خبزه لموضع آخر؛ بل اجتمعوا معاً بروح واحد

وكمّلوه بالسلامة والاتفاق والتواضع وخوف الله والطلبات. وحينئذ يُكمل خبز بيت السلامة وتناولونه بفرح وسرور. وبعد ذلك تعطون للضعفاء والمساكين لكي تستحقوا الفرح الثاني المختار؛ الذي هو الإيمان والرجاء والمحبة والتواضع والخافة والإفراز والنسك والسلام والهديز ومحبة الإخوة. لأن كل من كانت هذه عنده، فهو لا يلبس لباس العرس (قارن: مت ١٢: ٢٢)، وسائر في أوامر الروح.

١٩ - وحقاً أقول لكم، يا أحبائي، إنني إلى الآن لم يُعطيني الرب أن أصنع هذا الأمر، الذي هو انفصالي عن الإخوة؛ وأخاف أن أصنعه من ذاتي وحدي من غير إرادة الرب. وأطلب إليكم أن تثبتوا في مواضعكم وصبركم لتعبر عنكم الأوجاع، لأن هذا ليس هو وقت طلبتكم لهذا الأمر. وأيّ مَنْ تقدّم وبلغ أن يكون له هذا، فأنا أعلم أن ربنا يعرفني به ويُتَمّ فيه مشيئته الصالحة. فإذا تُبِتْ على هذا، فإن السلامة تكون لكم ولمواضعكم، ولكل من يأتي إليها، ولكل من يصلّي فيها باسم الرب.

٢٠ - وهذا اعلموه يقيناً، أن كل من يسعى كمشيئة الله، التي لا تختلط بها مشيئة الإنسان، فإن قوة الله - التي هي أحلى من الشهد ومملوءة من كل سرور - تعضده وتقويه وتعطي لنفسه (أي تغمره) أعمالاً عجيبة وتهيئ أمامه كل المسالك المحبوبة للرب. حينئذ لا يقدر أحد من الأعداء أن يضادّه، لكونهم يرونه سائراً في إرادة الرب.

أما من يسعى بهواه، وهو يظن أنه هوى الرب، فإن الله لا يعضده في شيء؛ بل يتركه للشياطين لتسكن في قلبه الليل والنهار ولا يتركونه يجد شيئاً من الراحة؛ لأن قلبه يصير مظلماً لا يرى شيئاً من النور البتّة، ويجعلونه بغير قوة في كل أموره الظاهرة والباطنة، بسبب انعدام النعمة. ويجلبون عليه

أشياء أخرى كثيرة صعبة ومتعبة، لا أستطيع أن أنطق بها. وكثيرون ضلُّوا بسبب ذلك لقلة فهمهم وتمييزهم، وصاروا يهزأون بالمؤمنين السائرين حسناً في الوسط (أي في الجمع).

٢١ - وهكذا جرى لأبينا الأول بسبب قلة تمييزه واستماعه لحواء، لأن حواء طغت بقلة تمييزها، وطمعت في عدم الموت والتأله، عندما أخفى الشيطان شكله في الحية وتكلم معها، كمن هو محب لها قائلاً: «إنكما إذا أكلتما من هذه الشجرة تصيران آلهة ولن تموتا» (تك ٣: ٤-٥). وهي بقلة إفرازها وعدم تمييزها، لما سمعت باللاهوتية وعدم الموت، لم تمتحن ما قيل لها لتعرف أنه من الشيطان؛ بل تركت عنها إرادة الرب وخالفت وصيته. وهكذا طغت وأطغت آدم، وحصل كلاهما - بعد الرفعة السامية - في هذا الدلّ المتفاقم، لكونهما خالفا إرادة الرب.

هكذا، يا أحبائي، بالحقيقة يصيب كل من يترك عنه إرادة الرب ويصنع إرادة قلبه.

٢٢ - وهكذا يتم عليه قول سليمان الحكيم في الأمثال: إنه «يُظنُّ بطريق أنها مستقيمة، بينما آخرتها تؤدِّي إلى أسفل الجحيم» (أم ١٤: ١٢). وأعرّفكم أيضاً أن الشيطان يعطي لمثل هؤلاء فرحاً وسروراً، وهو ليس كذلك بالحقيقة؛ بل عبوسة وكآبة وبكاء، لأنه ليس من الله. لأن الفرح الذي من الله والسرور، إنما يُعطيان لمن يتعب بكل قوته ويغضب ذاته ويقهرها على الثبوت في الأعمال الصالحة، ويقطع إرادته ويتمسك بإرادة الرب.

٢٣ - وإذا قد تكلمت عن إرادة الله وإرادة البشر، أريد أن أعرّفكم شيئاً آخر، وهو أن المشيئة التي تعمل في قلب الإنسان هي على ثلاثة أنواع.

وكثيرون من الرهبان والعذارى لا يتأملون ذلك؛ بل القليل منهم جداً، الذين تعبوا في الجهادات العظيمة وكملوا بالإفراز، هم الذين يراعون ذلك؛ لأنه مكتوب: إن «الطعام القوي هو للأقوياء» (عب ٥: ١٤). فالنوع الأول (من أنواع المشيئة) هو من الشيطان، والثاني من الإنسان، والأخير هو من الرب. فالاثنتان اللذان من الشيطان والإنسان، لا يُسرُّ الله بهما؛ بل يُسرُّ بالذى له فقط.

٢٤ - والآن، يا إخوتي الأحباء المحبوبين لقلبي، افحصوا ذواتكم وتمسكوا بمشيئة الله. واسمعوا لأبيكم، فإني أطلب كثيراً إلى الله عنكم. لا تتركوا بيتكم (أي ديركم) بحجة الخير، الذي ليس هو بخير، وتنتقلوا إلى غيره؛ بل اثبتوا إلى أن أصل إليكم بمعونة الرب وأعرّفكم بما ينفعكم، لأنكم إن فعلتم ذلك الأمر، تحزنون قلبي وتحزنون أنتم أيضاً. وأنا المسكين، يا أحبائي، أظن أن في معرفة إرادة الله أكثر منكم، وأعرف ما هو لتقويمكم.

فاثبتوا، إذاً، في محبة الإخوة وفي المجد الذي لكم، وتأملوا إرادة الرب. وهذا ليس بالأمر الحقيّر أن يتأمل (أي يراعي) الإنسان دائماً إرادة الله في كل شيء. وحقاً أقول لكم إنه إن لم يترك الإنسان كل مشيئات قلبه، ويتضع في كل شيء، وي طرح عنه جميع غناه ومقتنياته، ويسمع للرب بسماعه (أي بطاعته) لآبائه الروحانيين؛ فهو لا يستطيع أن يتأمل إرادة الله ولا يصنعها، ويُعدّم البركة الأخيرة.

٢٥ - فإبراهيم لما بارك إسحق، قال له: «إلهي يقوبك لكي تصنع إرادته». وهكذا كل من يطيع آباءه الروحانيين في كل شيء، فإنه يصنع إرادة الله. وكذلك أبونا الصالح يعقوب الذي بُورك من أبيه إسحق لكثرة طاعته لأبويه، سكنته القوات (أي الفضائل)، لأنه كان يسمع لهما ويصنع

إرادتهما. فقد ذكر عنه في التوراة أنه قبل وفاة أبيه، وبعد نوال البركة منه، قالت له أمه أن يمضي إلى ما بين النهرين ويبقى عند خاله لابان، لأن أخاه عيسو كان يريد قتله. ولم يكن يعقوب يشتهي أن يمضي إلى هناك ويترك بيت أبيه، لأنه كان يحبهم وهم أيضاً كانوا يحبونه، لكنه سمع وأطاع ومضى إلى ذلك الموضع البعيد وإلى الأرض التي لم يكن يعرفها. ولم يخالف إرادة والدته؛ بل ترك شهرته وإرادته ليطيّب قلبها، واجتهد هذا الاجتهاد جميعه حتى كملت عليه بركة أبويه. لأنه مكتوب: إن «بركة الآباء تثبت بيوت الأبناء.» (ابن سيراخ ٩: ٣)

٢٦ - وقد بلغني أن بعضكم يقولون إن يعقوب لم يهرب من أخيه عيسو، وبعضكم يقول إنه هرب منه؛ وهذان القولان يصدقان عليه، لأنه لم يهرب بمشيئته بل هرب بطاعته. ولأجل ذلك عضده الرب في كل شيء خفياً وظاهراً.

فالآن، يا أحبائي، ليكن تذكّار يعقوب ومَن سلك مسلكه، عندكم وفي ذواتكم بلا انقطاع.

٢٧ - وأزيلوا من خواطركم ما سمعته عنكم، إذ تقولون إن الله ينسى أتعابكم ولا يجازيكم (أي يكافئكم) عنها. حاشا؛ لأن ربنا له المجد لم يقل إن المجازاة تكون ههنا، بل التجارب والضيقات والأتعاب والأحزان؛ وهناك تكون المجازاة. لأن هذه الحياة هي طريق الأتعاب والتجارب. فإذا صيرتم وسمعتهم وأطعتم آباءكم، فإن الرب يُحسن مجازاتكم، لأن هذا هو التعب الذي يُذكر أمام الرب.

٢٨ - وأنا المسكين أبوكم أعرفكم، يا أحبائي، إنني قد تعبْتُ في الجبال

والبراري وطلبتُ في الليل والنهار أن يكشف لي الرب إرادته، فلم يُظهر لي شيئاً؛ حتى سمعتُ لآبائي في كل شيء وقبلتُ معرفتها (أي معرفة إرادة الله) منهم. لأن كل مَنْ يسمع من آبائه فللرب يسمع؛ ومَنْ يسمع من الرب فهو يسمع لآبائه. ومَنْ لا يسمع لآبائه فهو لا يسمع من الرب. فيا أحبائي بالرب، اسمعوا لأبيكم في ما كتبته إليكم، لكي تحلَّ عليكم بركته، وتجدوا راحة ونعمة وقوة ومجداً ويسهل الرب جميع طرقكم.

وهذا قد أعلمتكم، في هذه الرسالة، بطريقة العمل الجسداني والعمل الروحاني، والمقاومات الجسدانية والشيطانية، لكي تعملوا وتجتهدوا وتنالوا البركة الأخيرة، وتسكن فيكم نعمة عظيمة. والسلام لجميعكم، والخلاص من الرب يسوع المسيح يكون لأرواحكم المتواضعة، ولأفكاركم وقلوبكم المتطهّرة. ولتحلَّ بركته بكل موضع يكون فيه الاتضاع. له السُّبح والمجد والإكرام من جميع الناطقين، ولأبيه ولروح القدس، من الآن وإلى أبد الآبدين. آمين.

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير

أو من خلال الموقع على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org